مدرستا أهل القرآن و اقرأ لتعليم القرآن الكريم

ولاية سمائل – وادي بني رواحة

# مقرر المسابقة التاسعة عشرة

## تفسير القرآن الكريم

## الجـزء التاسع عشر

من كتاب

الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز

يمكنكم الحصول على تفاصيل المسابقة وتنزيل نسخة إلكترونية من هذا المحتوى عبر

موقع المدرستين على شبكة المعلومات العالمية

https://areejquran.net/

---

دعـوة من القلب

لأننا نحبكم في الله فإننا نوجه إليكم دعوة من القلب لخدمة دين الله تعالى من خلال المشاركة في نظام السهم الوقفي، أو الدعم المباشر للمبنى الوقفي، والبرامج التعليمية للمدرستين وذلك من خلال التواصل عبر الأرقام ٩٩٢٠٦٣١٥ – ٩٨٢١١٢١١-٩٢٥٠٨٦١٣

سائلين المولى عزوجل أن يجعل إنفاقكم صدقة جارية في ميزان حسناتكم.

# تفسير الجزء التاسع عشر

## تابع تفسير سورة الفرقان

### إعلانُ بشريّةِ جميع الرّسلِ و إبطال مزاعم الكفّارِ وتهديدهم

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)﴾.

ثمّ يعودُ بالخطابِ إلى الرّسُول ﷺ مسلّيًا له ومجيبًا على استغرابِ قومه منه في: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ بأنّ ما يجدُه منهم لم يقتصر على شخصه بل هي سنّة الله في رُسله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ ولم نبعث أحدًا قبلك من الرّسلِ إلاّ كان متمتّعًا بما تتمتّعُ بهِ ذواتٌ بشريّةٌ؛ من الإقبالِ على الأكلِ؛ وحبِّ الاكتسابِ من الأسواق، ولم يميّزهُم الله إلاّ بخصائصهم النّفسيّة لأنّها مدارُ التّأثيرِ في غيرِهم، وأكّدَ الكلام مع كونه معلُومًا لأنّ الحجج قد تخفى فيكونُ إظهارُها في أوانِها بمنزلةِ ما لم يسبق به علمٌ، وأصل الآيةِ أنّها عتابٌ للكفّارِ كأنّه قال: فلم تُنكرُون على مُحمّدٍ وقد علمتُم أنّ الرّسل كلّهم كانوا على ذلك؟ وبين "أرسلنا والمرسلين" جناسُ اشتقاقٍ.

ويُوجّه خطابًا عامًّا للمؤمنين وغيرِهم ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ومن سنّةِ الله أن جعل اختلاف النّاسِ مادّيًّا وفكريًّا ودينيًّا وخَلْقِيًّا ليختبرَ تعايُشهم مع بعضِهم، وسمّى ذلك فتنةً مجازًا و إنّما هو سببٌ لها، وقد فتن الكفّار بمظهرِ المؤمنين الضّعيف وفي الفتنةِ سقطُوا؛ وفتن أهل الإيمان بغلبةِ غيرِهم وقوّتِهم، ثمّ أوصاهُم؛ وهنا تقديرٌ أي قائلينَ: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أتصبرُون على أذى المشركينَ أم تجزعون فتخسِرون؟ والاستفهامُ للتّحضيض على الصّبر، وحثّ به أهل الإيمان لأنّهم أجدرُ بالصّبرِ وأولى وليُسلّيهم بفقهِ سُننه، والآيةُ وإن نزلت في هذا السّياقِ فهي بعبرتها شاملةٌ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

والله مطّلعٌ على أعمالِ المشركينَ و أقوالِهم، واستعمل لفظَ الرُّبوبيّةِ المضافِ إلى ضميرِ الخطابِ لما يُشعرُبه من الإيناسِ والتّلطّفِ.

وحينَ طلبَ المشركون أن ينزلَ إلى الرّسُول ﷺ ملكٌ في: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: ٧] ارتقوا في العتوّ فطالبُوا بملائكةٍ ويكونُ نزولهم عليهم وأن يروا الله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وقال المشركون، واختارهنا نعتهم بالذين لا يرغبُون في لقائه زيادةً في ذمّهم، وليبيّن ما جرّأهم على مقولتهم الآتية؛ فهم لا يُؤمنون بالسّاعةِ ولم يعملُوا لها ليرجوها، وليكشفَ عن تناقُضِهم؛ فقد كذّبُوا باليومِ الذي تُرى فيهِ الملائكة ثمّ يريدُون رُؤيتَها، ولقاءُ الله مجازٌعن المثولِ بين يدي محكمتِه الأخرويّةِ ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ هلاَّ أنزل الله علينا الملائكة أو نرى الله لنتلقّى الدّين مباشرةً، و"لولا" تحضيضٌ مستعملٌ في التّعجيز، وثمّةَ من أوَّلَ طَلَبَهم في نزول الملائكةِ ورُؤيةِ الله أنّه استعجالٌ للعذابِ حكايةً لموقِفِهم من إنذارِ الرّسول الذي افتتحت بهِ السّورة، وحينَ عدُّوا أنفسهم أرفع من أن يتلقوا الوحيَ من بشرٍ مثلِهم قال: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ والله لقد امتلأت أنفسهم كبرًا وتجرُّؤًا، وفي الكلامِ قسمٌ مقدّرٌسيقَ لنكتةِ التّعجيبِ منهم، والسّينُ والتّاء للمبالغةِ في التّكبّر، و"في" ظرفيّةٌ للدّلالة على تمكّن الكبرِ في أنفُسِهم؛ أو هي للتّعليل نحو: " دَخَلت امرأةٌ النّار في هِرّة "،[1] كأنّه قال: استكبرُوا لأجلِ غرُورٍ في أنفُسهم ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وطغوا طُغيانًا عظيمًا، والعتوّ مجاوزةُ الحدِّ في الظّلم، وأعقبه بالمفعولِ المطلقِ"عتوا" تأكيدًا، ثمَّ وصفهُ بالكِبَرِ ليدلَّ أنّه بلغ غايةً لا تتصوّر، وهذه المذمّةُ شملت كلا الطّلبينِ على كُلِّ حالٍ؛ فالطّامعُون في رُؤيةِ ذات الله مع استحالتِها قد استوجبُوا أثرًا من تلك المذمّةِ، وفي "عتوا عتوًّا" جناس اشتقاقٍ وهو من ملطّفاتِ الكلام.

ثمّ يومئ الله لرسُوله ﷺ بأن يذكّرَهم بالنّزولِ الحقيقيّ للملائكةِ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ واذكرلهم اليوم الذي يرون فيه الملائكة، وهو يوم موتهم أو يوم بعثِهم، وقدّم الظّرفَ للاهتمامِ به وليوقعَ الكآبةَ في قلوبِهم إذا علموا أنّهم أجيبُوا إجابةَ تهكّمٍ إلى طلبِهم، وذكر رُؤيةَ الملائكةِ دون نزولِها ليقرّر أنّها تكونُ على غيرِ الوجهِ الذي طلبُوهُ ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ لا يجدون من الملائكةِ حينها أيّ خيرٍ؛ ونفاهُ

---

[1] مقطعٌ من حديث ابن عُمر عن النّبيّ ﷺ قال: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض). رواهُ البخاري، ك: بدء الخلق، ب: خمس من الدّواب فواسق يُقتلن في الحرم، ر: ٣٣١٨، (٤/١٣٠).

عنهم بالمصدرِ "بُشرى" مبالغةً، وهو كنايةٌ عن الخزيِ بطريقِ نفيِ الشّيءِ لإثباتِ ضدِّهِ، وأعاد ذكر اليومِ تأكيدًا واهتمامًا به لأنّه محلّ الخزي، وذكرهم بعنوانِ الإجرامِ ليُبيّن سببَ خزيهم؛ وليزيدهم ذمًّا لَمّا تضاعف كبرُهم وتعالى عُتوُّهم ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ وحينها تُعلنُ لهم الملائكة بأنّ: كلّ خيرٍ قد حرم عليكم؛ وعلى هذا درج كثيرٌ من المفسّرينَ، ويظهرُ أنّ المقول صادر من المجرمينَ وهو بمنزلةِ الاستعاذة وطلبِ الأمان، جاء عن الخليل بن أحمد الفراهيدي قوله: «كان الرجل يَلقَى غيره في الأشهر الحُرُم فيقول: حِجْراً مَحجُوراً أيْ حَرامٌ مُحرَّم عليك في هذا الشّهر فلا يبدؤهُ بشَرٍّ، فيقول المشركون يومَ القيامة للملائكة: حِجْراً محجُوراً، ويظُنّون أن ذلكَ ينفعُهم كفِعلِهم في الدنيا»، [٢]، و"حِجرا" أي حرامًا من الحجْرِ وهو المنع؛ بالحركاتِ الثّلاث في الحاءِ والكسرُ أشهر، وزيادةُ "محجورًا" لبيان تمكّنِ الوصفِ المشتقِّ؛ وهو تذييلٌ تحسينيٌّ نحو: ظلاً ظليلاً ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ وتوجّهت إرادةُ الله إلى كلّ ما قدّموهُ من أعمال البرِّالتي يُظنّ في أمثالِها ثوابٌ أوفضلٌ، والقُدوم ونحوه من أفعالِ التّنقّل تردُ مجازًا بمعنى: العزمِ والإرادةِ، فتكون للمعنى أحسن تفسيرًا، و"مِن" بيّنت مبهم "ما"؛ وتنوين "عملٍ" لبيانِ النّوعِ أي: من عملٍ خيريٍّ ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ فصيّرناهُ كالهباء المفرّقِ في الهواء؛ فلم ينفعهُم عملٌ لَمّا انعدم الوعاء الذي يحويه وهو الإيمان مع الإخلاص، وأصلُ الهباء الذّرّاتُ اللّطيفة التي يظهرُها ضوء الشّمس إذا دخل من كوّةٍ؛ وقد شبّه أعمالهم به لحقارته وكونه كالمنعدمِ مع وجود أثرِه وعدم فائدتِه فهو تشبيهٌ رائق رائعٌ، والمنثور المفرّقُ؛ والهباء لا يكونُ إلاَّ كذلك وإنّما ذكرهُ لزيادةِ كشفٍ وتحقيق بيانٍ.

وفي خضمّ كشفِ أحوال فريقِ الكفرِ يتبادرُ السّؤالُ عن أحوالِ الفريقِ المقابل فيَعرضُها: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك اليومِ يكونُ أصحابُ الجنّةِ في تمام النّعيمِ تحفُّهم الملائكةُ بالتّسليماتِ والبشائرِ ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ في أفضلِ نُزُلٍ وعلى أتمّ الرّاحةِ، والمستقرُّ اسمٌ لمكانِ الاستقرارِ الآمنِ المريحِ، وأصلُ المقيلِ الرّاحةُ في القيلولةِ بعد اشتدادِ الحرّ واستعارَ ذلك لوصفِ الجنّةِ؛ ولا نومَ في الجنّةِ لأنّهُ لا تعبَ فيها؛ ولا تعبَ فيها لأنّه لا حرَّ فيها ولا جهد، واسما

[٢] **كتاب العَين**، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج: ٣، ص٧٤.

التّفضيلِ"خير،أحسن" ليسا على حقيقتِهما لظهورِ المفضّلِ بدونِهما، و إنّما عَرْضُ حالهم مقارنةً بحالِ الأشقياءِ وراءهُ حثٌّ لنا على تقريرِ المصيرِ الأسلم.

## قيمةُ الذّكرِ وسبيل الرّسُول ﷺ في الآخرةِ وتثبيتُه بالقرآن

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)﴾.

ثمّ يُفصلُ في كيفيّةِ نزولِ الملائكةِ في المحشرِ وما يكونُ مِن شأنهم ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ واذكر أيّها الرّسُول ﷺ لهم اليوم الرّهيب الذي ينزاحُ فيه غمامُ السّماءِ عن بعضِه، والغمام هنا السّحاب الذي يغطّي موقِف الحشرِ، والباء قيل: سببيّةٌ أو هي بمعنى "عن" ويظهرُ أنّ الأقرب كونُها للملابسةِ، أي: تشقق السماء تشققا على إثر تشقق الغمام، تمييزًا زائدًا عن قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] فالانشقاقُ شمل الغمام ثمّ السّماء فهما بابان ممهّدانِ لنزولِ الملائكةِ، ثمّ إنّهُ ليس تشقّقًا واحدًا وهو ما تُؤكّدُه صيغةُ التّشقّق المضعّفةِ؛ ويُناسبُه: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النّبأ: ١٩] واليومُ يومٌ واحدٌ و إنّما يعيدُ ذكرهُ للرّفعِ من أهمّيّةِ أحداثِه وكأنّ لكلّ منها يومًا ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ فيُشاهدُون نزول الملائكةِ عليهم، وأوردَ الفعلَ مضعّفًا وشفّعهُ بالمفعولِ المطلق"تنزيلا" لتصويرِ عظمةِ نزولِها الحقيقيّ، والتّعريفُ في "الملائكة" للاستغراق، والحاصلُ: هو الإعلانُ الرّسميُّ للملائكةِ بأن ينزلوا من علیائهم ليُباشرُوا مهامهم في مو اقفِ البعثِ والحسابِ بعد أن كان لا يُؤذنُ إلاّ لبعضِهم؛ ويبقى عِلمُ الصّورةِ التّفصيليّةِ على حقيقتِها لله، وفي "نزّل تنزيلاً" جناس اشتقاقٍ ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ السّلطانُ في ذلك اليومِ لله وحدهُ لا لجبّارٍ ولا لديكتاتُور، والتّعريفُ في الملكِ لاستغراقِ كُلّ ملكٍ صورةً ومعنى، وفي "الحقّ" إبطالٌ لكلّ ما يشوبُ الملك الدّنيويّ فيظهرُ عظيمًا وهو

ليس كذلك، واختار اسم "الرّحمن" هنا إيذانًا بعدالته ولُطفه اللّذينِ لم يخلُ منهما موقفُ الحسابِ ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ وكان ذلكم اليوم صعبًا على الكفّارِ لأنّهم كذّبوا به ولم يستعدُّوا له فوجدُوا الله بالمرصاد لهم بعدالتِه يُحاسبُهم، وليس في هذا تناقضٌ مع ذكرِ الرّحمةِ كلاَّ بل هو تقريرٌ لشقاءِ الكفّارِ إذ فوّتُوا عن أنفُسهم رحمةَ الرّحمن التي جاءت لتسعهُم فأبوها، وقصرُ اليومِ على الكفّارِ إشارةٌ إلى السّلامةِ الشّاملة لفريقِ السّعداءِ.

ثمّ يقصُّ الله موقف النّدامةِ الأعظم للمعرضِ عن دعوةِ الرّسُول ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ واذكر لهم أيّها الرّسُول ﷺ اليوم الذي تشتدُّ فيهِ ندامةُ الشّقيّ الذي ظلم نفسه باختيارِ طريقِ الشّيطان، والتّعريفُ في الظّالم لاستغراقِ الجنس، وذكر العضّ على اليد كنايةً عن النّدامة، والعضّ لا يتجاوزُ الأصابع ولا يحتمل إلاّ يدًا واحدةً وذكر اليدينِ مجازًا ليصوّر منتهى الحسرة، وحقُّ فعل العضّ أن يتعدّى بلا واسطةٍ ولكن تعدّى بعلى لإفادةِ تمكّنه في المعضوض ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ يقُول الشّقيُّ متمنّيًا ما فاته أو انُه، و"يا" حرفُ تنبيهٍ يُؤذنُ بشيءٍ ذي بالٍ: ليتني كنت متّبعًا طريق الرّسُول الذي جاءني حتّى أضمن به نجاتي، وعدل عن لفظِ الاتّباعِ إلى الإطنابِ الذي عبّرت بهِ الآية؛ لتحصل له صورةٌ تمثيليّةٌ تكونُ تلميحًا إلى أنّ مجرّد اتّباع الرّسالةِ السّماويّة لا يكفي حتّى يكون منهجُه موازيًا للطّريقةِ التي سارعليها الرّسُول، وتنكيرُ"سبيلاً" لتفخيمِه ولبيانِ وحدتِه ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ نداءٌ للويلة؛ وهو مجازٌعن شدّةِ الحسرةِ، والويلُ السّوء؛ والويلة مؤنّثُهُ وهي أبلغُ في التّشاؤم، والألف في "ويلتى"بدلٌ من ياءِ التّكلّمِ ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ليتني لم أجعل صديقي -ويذكُرُه باسمه- صاحبًا، و"فلانٌ" بلا تعريفٍ كنايةٌ يستعملُها العرب بدلاً عن الاسم العلم لعدّةِ أغراضٍ؛ منها عدم فائدةٍ في ذكرِه؛ أوللتّعميمِ في متّحدٍ في الحكم مثلِه، وفي هذا التّمنّي تلويحٌ إلى الاعتذارِبأن ضلالَه كان بسببِه و أنّى يُقبل منه هذا الاعتذار! ولم يقل ليتني لم أطعه ،وإنما أوقع التّمنّي على على الخلّةِ تقريرًا بأنّ منافع الخلّةِ لم يبق لها أثرٌلما خامرَها من فسادٍ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ والله لقد أبعدني عن الوحيِ الذي فيهِ التّذكيرُبمصيري بعد أن وصلني، وفي الجملةِ تقديرُقسمٍ، وفائدةُ التّأكيدِ بالقسمِ و"قد" تصويرُ التّأسّف البالغ الحقيقيّ، وعدُّه أنّ الوحي جاءهُ اعترافٌ باجتهاد

الرّسُول في التّبليغِ، ويجوزُ مناسبةً للتّمنّي عودُ "جاءني" إلى الخليلِ إيذانًا بأنّ له الحظَّ الأوفر في الإضلالِ ولولاهُ لكان الأمرُ أمرًا آخر.

ثمّ يُعقّبُ الله على ذلك: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ ولقد كان الشّيطانُ بحقٍّ عظيم الخذلانِ للإنسانِ بتزيينِ اتّباعِ الخلاّنِ وعصيانِ الرّسُول وبالإغراءِ بالدّنيا ونسيانِ الذّكرِ ثمّ بعد كلّ ذلك التّبرّؤ منه، وفي الآية أدب اتّخاذِ الأصحابِ بأن يكونوا معينينَ على الدّين والتزامِ سنّةِ الرّسُول ﷺ ولا يكونوا من حزبِ الشّيطانِ.

ولَمّا حكى موقف الشّقيّ من اتّباعِ الرّسُول يوردُ بالمقابل موقف الرّسُول من قبول قومه لدعوته ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ﴾ ولقد اشتكى الرّسُول ﷺ إلى ربّه متوسّلاً، والتّوسّل في الدّنيا ظاهرٌ ويُحتملُ أنّهُ أخرويٌّ مناسبةً للسّياقِ، والله أعلمُ بهِ وإنّما المرادُ تصويرُ إحساسهِ وفظاعةِ ما يلقاهُ؛ تهديدًا لقومه -ونحن منهم- من انتصارِالله له، وذكرهُ بالرّسالةِ تشريفًا وتحقيقًا لها ردًّا على من أنكرَها، واختار النّداء بلفظِ الرّبوبيّةِ إمعانًا في استجلابِ اللُّطف، والآيةُ على عمومِها سطّرت عُلُوّ همّةِ الدّاعيةِ بأنّه لا يتأسّفُ لحظٍّ دُنيويٍّ وكلُّ همّه سعادة غيرِه بالنّورِ الذي بينَ يديه ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ إنّ قومي قابلُوا القرآن الذي جئتُهم به رحمةً ونورًا بالإعراضِ، وأكّد الكلام إثباتًا للتّهمةِ عليهم بعد أداءِ واجِبه في التّبليغ، وذِكْرُه القوم وإضافتُهم إليه لتصويرِ تأسّفه ممّن شأنُه أن يُوافق لا أن يُخالِف، وأشار إلى القرآنِ لبيانِ عظمته وهم قد نبذُوهُ؛ وتنبيهًا إلى أنّ دعوته لم تجِد عمّا وجب عليهِ أن تكون، وعبّر بالاتّخاذِ تحقيقًا بأنّ هجرهم كان عن إرادةٍ، وهجر القرآنِ أقسامٌ بعضُها أهون من بعضٍ؛ فيبدأُ من ترك الاستماع إليهِ ثمّ تركِ الإيمان به ثمّ تركِ تدبّرِه ثمّ تركِ العملِ بهِ والاحتكامِ إليهِ، وأهون ذلك ترك الاغتنام من فضائله، ويُسلّيه الله بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما وجدت الإعراض من قومك فقد كان لكلّ نبي قبلك أعداء رفضوا دعوته، والمراد: فاصبر كما صبرُوا، و"عدوّا" أُفرد للجنس وأراد بهِ الجمع، و"كلّ" أفادت تعميم القاعدةِ على أفرادِها لتهيئةِ قبولها فالقانون العامّ سُلطانٌ بذاته، وتعبيرُ الآيةِ أبلغ ممّا لو قال: أعداء مجرمون، والآية تضمّنت توبيخًا للمشركين بأنّهم في سجلِ الإجراميّين المناوئينَ للأنبياءِ ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ويكفيكَ ربُّك اللّطيفُ بحالكَ هاديًا إلى طريقِ السّلامةِ الدّنيويّة والأخرويّة ناصرًا لك على كُلِّ مناوئٍ،

كما فعل مع الأنبياءِ قبلكَ، وفي هذا إشارةٌ له ﷺ بأنَّ: بوّابة الهدايةِ لا تزال مفتوحةً لمناوئيك فقد يعزّك الله بأفرادٍ منهم كانوا لدعوتك من قبلُ أعداء غلاظًا شدادًا، وهنا تربيةٌ قرآنيّةٌ لكلِّ داعيةٍ بأن يُفوّض أمرهُ إلى الله مهما ساءت حالُه.

وَلَمّا وجد الكفّار أنّ القرآن يؤيّدُ الرّسول ﷺ ويكشفُ عن طوايا قلوبهم ادّعوا بأنّه: لو نزل مرّةً واحدةً لكان أضمن مصدرًا وأحسن قبولا؛ فقالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ هلاّ أنزل القرآن على محمّدٍ مرّةً واحدةً، وذكرهُم بعنوانِ الكفرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه تسجيلاً تأكيديًّا لكُفرِهم، وعبّروا بالإنزالِ مضعّفًا وبقيدِ "واحدةً" مبالغةً في تصويرِ إنزالِه دفعةً، وتفريقُ القرآن ليس كما رأوا بل يُعدُّ إعجازًا يدلُّ على أنّهُ كلام الله فإنّ كلام غيرِه إذا طالت مدّةُ جمعِ مادّتِه لابُدّ وأن يعتريهِ الاضطراب؛ ولا يتناسقُ إلاّ إذا عدّل تعديلاً لكي يبدو كأنّه أُخرج جملةً واحدةً، ويُجيبُ الله عن مطلبِهم ذلك ملتفتًا بالخطابِ إلى الرّسُول ﷺ إظهارًا لامتنانِه عليهِ: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ كان نزوله على مراحل لأجلِ تثبيت قلبك به كلّما ألقى عليك الكفّار شبهةً؛ والعلمُ الذي يُعطى شيئًا فشيئًا يكونُ في القلبِ أثبت؛ كما أنّ تقديمه حسب الحاجةِ يجعلُه للقلبِ أشوق، وفي هذا غايةُ العلّةِ والمقامُ أولى ببيان غيرِها لو وجدت،[٣] ونسبَ الله التّثبيت لنفسهِ معبّرًا بنونِ العظمةِ لإفادةِ حصوله المؤكّدِ ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ وأنزلناهُ حرُوفًا وكلماتٍ وآياتٍ يتلُو بعضُها بعضًا فلا تكادُ تشعُر باضطرابٍ فيهِ مع نزوله مفرّقًا؛ وهذا فعلٌ لله ومعناهُ قد أولى بأجزائه العنايةَ كما أولى بالكلِّ، ونحنُ حين نقرأُ القرآنَ على تلك العناية فقد رتّلناهُ؛ على أنّ إخبار الآيةِ قد يُحملُ على الأمرِ كما في: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزّمل: ٤] مناسبةً للسّياقِ المتّحدِ في الموضعينِ، والقرآن نزل آياتٍ مفرّقات في مُعظمِه حتّى إذا اكتملتِ السّورة جاءت إلى النّبيِّ ﷺ جملةً واحدةً؛ وهذا النّسقُ الموحّدُ بعد النّزولِ المفرّقِ هو مظهر التّرتيل العامّ؛ ويرادفه في اللّغةِ المعاصرة مصطلح "التّأليف"، واستعمالُ المفعولِ المطلقِ "ترتيلا" تولّد عنه جناس اشتقاق؛ وحصل بتنكيرِه تعظيمٌ للتّرتيل ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ ولا يعترضُ عليك الكفّار بشبهةٍ إلاّ أيدناك بالحقِّ الذي يُبطلُها، وفي هذا زيادةُ بيانٍ لعلّةِ عدمِ

[٣] فلا يصحُّ ادّعاء أنّ أمّيّة الرّسُول ﷺ دفعت إلى ذلك، كما قال بعضٌ؛ حين فرّقُوا بين نزولِ القرآنِ مفرّقًا ونزولِ غيرِه من الكُتب السّماويّةِ جملةً؛ مع أنّه لا دليل على إنزالِ أيٍّ منها جملةً.

إنزالِ القرآنِ جملةً واحدة؛ تضمّن تسليةً له ﷺ بأنّه مؤيّدٌ بعد كلِّ شبهةٍ يرمون بها، والمثل الحال المشابه؛ وتنكيرُه لاستقصاء كُلِّ شبهةٍ، فإنّهم ما فتئوا يصوّرونه ﷺ بأحوالٍ يُريدُون بها سلبَ حقيقتِه بأنه رسُول صاحب رسالةٍ فيجيء الحقُّ يُدمّرُ شبههم تدميرًا، وعبّر بالمضارع في "يأتُونك" لإفادةِ أنّ كلّ ما سيأتُون بهِ محبط كإحباطِ ما سبقَ، وهو إتيانٌ مجازيٌّ كما أنّ المجيء في "جئناك" مجازيٌّ، وموضعُ الآيةِ بديعٌ فقد كان بمنزلةِ الخلاصةِ لما سبقَ من شُبهاتِهم في السّورةِ ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وجئناكَ بأحسنِ بيانٍ يوضح لك الأمر ويُبطل شُبَهَهم؛ والتّفضيلُ لمحضِ المبالغةِ فليس في شبههم حسنُ بيانٍ لشأنِ الرّسُول ﷺ بل كلّهُ سوءٌ، وهذا من عطفِ الخاصّ على العامّ لمزيّةٍ في الخاصّ لأنّ التّفسير الحسن من الحقّ.

ومبالغةً في تصويرِ جزاءِ المعرضينَ الذين ما برحوا يأتون إلى النّبيّ ﷺ لجدالِه قال: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ أولئك الذين يدفعون إلى النّارِ مسحوبينَ على وجوههم، وفي هذا إيماءٌ إلى جزائِهم الفظيع بأنّه من جنسِ فعالِهم القبيحة من تصعيرِ خدودِهم وتصعيد وجوههم أمام الحقّ، وفي حديثِ أنسٍ بن مالك ﷺ أنّ رجُلا قال: يا نَبيَّ الله يُحشر الكافِر على وَجهِه يوم القيامة؟ قال: (أليس الذي أَمْشاه على الرّجلين في الدّنيا قادِرا على أن يُمشيه على وَجهِه يوم القيامة).[٤] ولَمّا أرادُوا الاستنقاص من النّبيِّ ﷺ بضربِ الأمثال له ردَّ عليهم بأنّهم هم الأسوأُ حالاً: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أولئك هم أسوأُ النّاسِ مقامًا و أبعدهم عن طريقِ النّجاةِ، والمكان المقام والمرتبة، والسّبيلُ الطّريق التي يُحشرُون فيها إلى جهنّم، وهما تمييزانِ تحوّلا عنِ الفاعلِ وأصلُ الكلامِ: ساء مكانُهم وضلَّ سبيلُهم، والتّفضيلُ وردَ للمبالغةِ في وصفِ شرّهم وضلالِهم لأنّ الصّالحين لا حظَّ لهم من الشّرِ حتّى يُفاضلُوا به.

[٤] رواهُ البخاري، ك: تفسير القرآن، ب: قوله ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ...﴾، ر: ٤٧٦٠، (١٠٩/٦).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)﴾.

ثمّ يعطفُ إلى التّذكيرِ ببعضِ قصصِ الأنبياءِ تسليةً للرّسُول ﷺ من الإعراضِ العجيبِ الذي يجدُه من قومه، وقد تضمّنت بالخصوص ردًّا عليهم بأنّ قصصهم ليست أساطيركما يرون بل كلُّها عبرٌمن مو اقف أشراف الخلق مع أقوامهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ ولقد أرسلنا نبيّنا موسى عليه السلام بالتّوراةِ، واللاّمُ في "لقد" موطّئةٌ لقسمٍ؛ نكتتُه تأكيدُ الأخبارِ المتضمّنةِ أدلّةً على النّصرةِ والتّأييدِ لأجلِ تثبيتِه ﷺ وتخويفِ المكذّبين، وذكر موسى بالكتابِ مناسبةً للسّياقِ الذي تحدّث عن نزولِ القرآنِ جملةً؛ ونوّهَ بالمتاعبِ التي تلقّاها من أجله بذكرِ وزارةِ أخيهِ ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ و أيّدناهُ في رسالتِه بأخيهِ هارُون عليه السلام، وسمّيَ المعين وزيرًا لأنّهُ يحملُ وزرَ التّدبير أي ثقله، والمراد بهذا الإخبار تذكيرُه ﷺ باستحضارِ الجو انب الإيجابيّة في دعوته فقد أُكرم برجالٍ كُثرٍ يُؤازرُونه كأبي بكرٍ وعلي وحمزةَ وعمر إذا كان موسى عليه السلام أكرم بواحدٍ؛ وفيه إجابةٌ للمشركين بأنّ الرّسل لا يُؤيّدُون بملائكةٍ بل ببشرٍ مثلِهم، واهتمّ بذكرِ الأخوّةِ النّسبيّةِ تنويهًا بشرفِها، والآية دليلٌ على أنّ هارُون مع نبوّتِه تابعٌ لموسى ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فأمرناهُما بأن يتّجها إلى فرعون و أتباعِه الذين كان شأنُهم التّكذيبُ بكلّ الآياتِ التي تأتيهم منظورةً ومتلوّةً؛ وقيل: التّوراة غير مقصودةٍ هنا لأنّها لم تنزل بعدُ، ووصفهم بالتّكذيبِ تبيينًا لعلّةِ هلاكهم بالتّدميرِ، وهنا تقديرٌ: فدعوهُم فأعرضوا عن دعوتهما بعد كُلّ المحاولات ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ فأغرقناهم بالطّوفانِ المدمّرِ، وهذا تعريضٌ للمشركين بعذابٍ غيرِ بعيدٍ؛ و إيناسًا له ﷺ بأنّ الفرج آتٍ، والتّعبيرُ بالمفعوليّةِ المطلقةِ"تدميرا" دلّ على تمكّنِ التّدميرِ منهم بحيثُ لم يصلح حالهم بعد ذلك، وفي الآيةِ جناسُ اشتقاقٍ، والآيتان قد حصل منهما براعةٌ في إيجازِ ما شأنُه أن يستغرق السّورة والسّورتين.

وبدأَ بموسى عليه السلام لأنّ عهده أقربُ و آثار رسالته وقومه باقيةٌ، ثمّ يأتي إلى قومِ نوحٍ لاشتراكهما في نوعِ الإهلاكِ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ واذكر قوم نوحٍ الذين جاؤوا قبل قومِ موسى بكثيرٍ، وفي هذا التّقديم اهتمامٌ بقصّةِ قومِ نوحٍ، أو هو عطفٌ على ما قبله ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ لمّا كذّبوا دعوةَ نبيّهم نوحٍ عليه السلام أغرقهم الله بالطّوفانِ فأبقاهم دليلاً لمن بعدهم إلى قيامِ السّاعةِ يُنبئ بعظمةِ الله في تنفيذِ وعيدِه في الظّالمين، والآيةُ نحو: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشّعراء:١٠٥] والظّاهرُ أنّهم كذّبوا نبياً واحدًا وذكر نوحًا بالجمعِ تعظيمًا؛ وليومئ بأنّ تكذيب الواحد تكذيبٌ للكلِّ لوحدةِ رسالاتِهم؛ ولأنّ شأن المكذّبين بالرّسالاتِ نفُيُهم أن تليقَ في الذّواتِ البشريّة إطلاقًا ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ولقد هيّأنا لكلِّ الظّالمين عذابًا أليمًا على نحوِ ما أعتدنا لهؤلاءِ الأقوام، أو أظهر هنا في مقامِ الإضمارِ ليصفهم بالظّلم؛ والمراد: وأعتدنا لقومِ نوحٍ عذابا أليمًا في الآخرةِ.

واذكر لهم الأقوام الآتية؛ وقدّم أسماءهم تشويقًا لما سيُخبر عنهم: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ عادًا وهم قوم هودٍ عليه السلام؛ وثمودَ وهم قوم صالحٍ عليه السلام؛ وأصحاب الرّسّ، و"الرّسُ" اسمٌ لبئرٍ كان يُقيمُ حولها قومٌ؛ اختلف فيهم اختلافًا كثيرًا وأشهر ما قيل فيهم: بقيّةٌ من ثمود أو أتباعٌ لشُعيبٍ عليه السلام، والله أعلمُ بموضعهم وما ذكرناهُ أقربُ لدلالةِ المصاحبةِ والإقامة؛ وقيل لهم:أصحاب الرس؛ لأنّهم حفرُوا البئر أو لأنّهم أُهلكوا فيها ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ واذكر لهم القرون الكثيرةَ التي لا يعلمُها إلاّ الله والتي جاءت بين فتراتِ الأممِ المذكورةِ، والمراد بالقرُونِ الأمم موافقةً لفحوى السّياقِ؛ سُمّيت بذلك لأنّ من شأنِها أن تُعمّر بالقُرون، ومن حكمةِ الله أن أخفى ما مضى من عُمر الدّنيا القاضي كما أخفى نهايتها ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ وكُلاً من تلك الأقوام عرضنا لهم الأمثال، أي أشباه أحوالِهم في الشّرّ أو الخيرِ ليَزِنوا أنفُسهم عليها إقامةً للحجة عليهم قبل الإهلاك، كما ضربَهم الآن مثلاً لنا لنتّعظ بهم، والتّنوينُ للعوض في الموضعينِ؛ ونُصبت "كلا" بفعل محذوف تقديره: خاطبنا أو حذّرنا، على طريقِ الاشتغالِ ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ وكلاً منهم بعد أن أعرض قد أهلكناه، وعبّر بالتّتبيرِ على سبيلِ الاستعارة لكسرِ الشّيء الصّلبِ وتفتيته؛ يُقال: تبّر الزّجاج إذا فتّتهُ، وهو تفنّنٌ في مخالفةِ: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾، وفي المفعوليّةِ المطلقة"تتبيرا" جناسُ اشتقاقٍ؛ وتأكيدٌ للفعل تصويرًا لشدّةِ وقوعه.

ثمّ يتعرّضُ إلى قصّةِ قومِ لوطٍ متخلّصًا إليها بانعطافٍ رشيقٍ لإظهارِ خصوصٍ فيها ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ ولقد وصل قومُك إلى موضع القريةِ التي دُمّرت بمطرِ الإهلاكِ، وفي الجملةِ قسمٌ مقدّر لبيانِ عجيبِ حالِهم في إضاعةِ الاعتبارِ ممّا يُحكى لهم أو تُلفتُ إليهِ أنظارُهم، واستخدامُ "على" أفادَ الإتيان عن جانبٍ والاطّلاع على المأتيّ إليهِ، و"السَّوء" بفتحِ السّينِ العذاب، و"مطرُ السّوءِ" اسمٌ لعذابِ الإهلاكِ؛ أو بمعنى: أمطرت إمطار السّوءِ، وفيهِ استعارةٌ لتتابع مطرِ الماء تصويرًا لشدّةِ عذابِهم بالحجارةِ ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أليسوا قد مروا عليها ورأوها؟ ومع ذلك لم ينفعهم ذلك! أي أنهم لم ينتفعُوا بالرُّؤيةِ، والاستفهامُ لتوبيخهم والإنكارِ عليهم، وعبّر بالمضارع في الفعلينِ لإفادةِ تجدّدِ رُؤيتِهم لها، وجعل الإتيانَ عليها ماضيا مفردًا إيماءً إلاَّ أنّ وقوعه ولو لمرّةٍ كافٍ للاتّعاظِ ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ في حقيقةِ الأمرِ قومك لا يزالُون يُنكرُون البعث فهم يرون هلاك تلك القرى على أيّةِ حالٍ أمرًا عاديًّا لأنّه لا بعثَ بعدهُ ولا حساب، واختار نفي رجائهم للبعثِ بدل عدمِ الإيمان به؛ ليكشف أنّ وراء ذلك إصرارَهم في البقاءِ على عُتوّهم الذي أفضى بهم إلى عدمِ رجاءِ ما يجعلُهم يُلاقُون جزاءهم.

### استهزاء الكفّارِ بالرّسُول ﷺ وبيانُ سببِه

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾.

وزيادةً لكشفِ مظاهرِ عتُوّهم التي جعلتهم يُنكرُون الحقائق استأنفَ في ذكرِ بعضِ ما كانُوا يقولونه للنّبيّ ﷺ مواجهةً بعد بيانِ ما كانُوا يقولونه عنه غيابيًّا، وهذا من أجل أن يعرضَ نموذجًا من الأمثالِ التي ضربُوها له وكيفَ أنَّ الله دفعَها بالحقّ وأحسنَ تفسيرًا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ وإذا رآكَ قومُك لم يقابلوك إلاَّ بوجهِ السّخريةِ والاستهزاء، و"إن" نافيةٌ بمعنى: لا، وإسنادُ الاتّخاذِ إلى الجمعِ "يتخذونك" مقابلةً بشخصِه المفرد دلَّ على موقفِ صعب يكون فيه حينَ يُستهزأُ به، وصيغةُ الحصر أفادَت مبالغةً في كونِهم لا يرونَ من النّبيّ حالاً إلاَّ حالَ الهزؤ ولو كان ﷺ على

النّقيض من ذلك، كما عبّرُوا بالمصدرِ"هزوا" مبالغةً في أنّهم عِدُّوهُ ذات الهزؤ وليس محلاًّ له، ومن ذلك قولُهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أهذا هو الرّجُل الذي أرسله الله إلى العالمين نذيرًا؟ والاستفهامُ مستعملٌ في التّعجّبِ والاستهجان والإنكار؛ بمعنى: كيفَ يكونُ هذا رسُولاً مع ضعفِه وقلّةِ نفوذه؛ مستحيلٌ أن يكونَ رسُولاً أبدًا، واستعملُوا الإشارة ليتميّزَ بها فيقع ما أرادُوه عليه؛ واختيرت الإشارة للقريبِ"هذا" تحقيقًا للتّحقيرِ والازدراء ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ لقد أوشك أن يصرفنا عن آلِهةِ آبائنا كلّيًا بقوّةِ بيانِه وبليغِ حُججه، و"إن" مخفّفةٌ من "إنّ"؛ واللّامُ في "ليُضلّنا" هي اللاّم الفارقةُ بين كونِ "إن" نافية أو مخفّفة من "إنّ" الثقيلة التي تفيد التوكيد، وذكرُوا الإضلال عن أصل الآلهةِ ليشمل إضلالهم عن اقتنائها و اتّخاذَها وعبادتها ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لولا أنّنا اجتهدنا في الحفاظِ عليها، ويُعدّى فعل الصّبرِ بعلى ليُفيد التّمكّن فيما يقع عليهِ، وفي هذا إرهاصٌ صادقٌ منهم؛ فما لبثت شبه الجزيرة العربيّة إلاّ قليلاً حتّى طُهّرت من الأصنام بفضلِ الدّعوةِ الحيّة، إلاّ أنّ فحوى الآيةِ قائمٌ يحكي طبيعة البشرِ في تمسّكهم بموروثِ آبائهم بلا دقيقِ تمحيصٍ فيه؛ ويصفُ شأنَ الكبراء في تزييف الحقائق وتزيينِ الأباطيلِ استجلابًا لدهماءِ النّاسِ.

وها هم أولاءِ حين سخرُوا منهُ ﷺ قد جعلُوهُ للنّاسِ مثلاً للمهانةِ؛ فيأتي الحقّ من الله العالمِ بالأحوالِ يقصمُ ظهرَ تلكَ المهانة ويدفعُ ما قذفوهُ من باطلٍ بما يعدُّ أحسن جوابٍ لهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ وسوف يدركون حقًّا حين يرون العذاب الذي تُوعّدُوا به، وهو يحتملُ الدّنيويّ والأخرويّ معًا لأنَّ في كليهما تُرفعُ الحُجب وتنجلي الحقائق، و"سوف يعلمون" تعبيرٌمستعمل في التّهديدِ والوعيدِ ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من هو المحقّ ومن هو المبطل؛ أمحمّدٌ أم هم؟ وتضمّن هذا تهكّمًا بهم لأنّ المحقّ ظاهرٌ، و"من" في الآيةِ بمعنى: الذي؛ ولك أن تعدَّها استفهاميّةً، والآيةُ بتقدير: مَن ضلّ سبيلُه، و إنّما استعمل صيغة التّفضيلِ للمبالغةِ في بيانِ الضّلالِ، وأمثالُ هذه الآيةِ يعكسُ مسمّى السّورةِ"الفرقان" في الفرقِ بينَ الحقِّ والباطلِ.

ثمّ يتّجهُ بالخطابِ إلى الرّسُول ﷺ مُعالجًا فيهِ ما يجدُه من إعراضِ قومه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ هل نظرت بتأمّلٍ إلى حالِ الذي جعل هواهُ بمنزلةِ الإلهِ يأتمرُ بأمرِه وينزجرُ عن نهيِه؟ أو بمعنى: الذي اتّخذَ إلهه ما يهوى عبادته بلا دليلٍ له على أحقّيتِه للعبادةِ، والرّؤيةُ علميّةٌ أو بصريّةٌ،

والاستفهامُ للحثِّ على الرُّؤيةِ لتحصيلِ التّعجّب ممن شأنُه كذلك، والأصلُ: اتّخذَ هواهُ إلهه؛ وقدّم المفعول الثّاني لأنّه محلّ التّعجّب، يقُول القُطب: "من فعلَ كبيرةً من أهلِ التّوحيدِ فقد جعل إلهه هواهُ؛ إذ تبع ما هواهُ وخالفَ الله"[٥] ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ فهل ينفعُك القيامُ على أمرِه لأجلِ هدايتِه وحفظِه من الضّلالِ؟ والاستفهامُ للإنكارِ أي: لا تكونُ بحالٍ عليهِ وكيلاً، وفي ذلكَ تأييسٌ من هدايتِهم للتّربيةِ على عدمِ التّأسّفِ عليهم بعدَ التّبليغِ لهم؛ لأنّهم أصبحوا بجهلِ مقصدِهم وعاقبة أمرِهم كالبهائم لا يُرجى منهم خيرٌ، ولذلك قال موجّهًا له ﷺ توجيهًا ثانيًا للكفّ عن التّأسّفِ عليهم: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أم تظنُّ أنّ أغلب أولئك يسمعون بوعيٍ إلى الحقّ الذي تدعوهم إليهِ أو يفهمون شيئًا من معانيهِ الجليّةِ، والاستفهامُ كسابقِه للإنكارِ أي: لا ينفعُ معهم حرصُكَ مهما بلغَ حتّى يتوفّر الاستماع والفهمُ منهم، ومن دقيق التّعبيرِ القرآنيّ أنّه ذكر الأكثر "أكثرهم" احترازًا ممّن سمع وعقل، ولمّا كان هذا التّوجيه يُثير تساؤلاً عن حقيقةِ هؤلاءِ مع سلامتهم ظاهريًّا بسطَ هذا التّشبيهِ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ وليس حالُ أولئك إلاّ كحالِ الأنعامِ لهم آذانٌ لا يسمعون بها ولهم أعينٌ لا يُبصرُون بها ولهم قلوبٌ لا يعقلون بها ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ بل هم أسوأُ حالاً، لأنّ الأنعام جبلت على ذلك وهم اختارُوه اختيارًا، ولأنّ لها مقصدا تسيرُ إليه فتنفعُ بهِ أمّا أولئكَ فقد ابتعدُوا كلَّ البعدِ عن دورِهم الإنسانيّ الذي خلقُوا له، ولأنّ لها نصيبا من معرفةِ ما ينفعُها وما يضرُّها في حدودِ ما خُلقت له وهم ما راعوا منفعةً ولا جانبُوا مضرّةً إذ أهلكوا دُنياهم وآخرتهم، ولأنّهم ساووا الأنعام في عدمِ إدراك الحقّ وتميّزُوا عنها في اعتقادِ الباطلِ.

[٥] محمّد بن يوسف أطفيّش، تيسير التّفسير، ج١٠، ص١٩٨.

## بعضُ الدّلائلِ على استحقاق الله للعبادة وبيان إعراض أكثرِ النّاس

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ أَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)﴾.

وبعد طولِ حديثٍ حول مجادلةِ الكفّارِ يأتي إلى عرضِ بعضِ آياتِه الدّالةِ على قدرتِه؛ والتي من شأنِها أن تهيّئ من القلوبِ أرضًا خصبةً لكي تنصاع إلى الحقّ، و افتتح بآيةِ الظّلِ تمثيلاً لحكمةِ الله في التّكوينِ التّدريجيّ بعد أن ذكرَ إنزالَ القرآنِ منجّمًا لأجلِ تثبيتِه ﷺ به ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ ألم تنظر إلى إبداعِ ربّكَ كيفَ أنّهُ جعل الظّلَ يمتدُّ تحتَ كلّ جسمٍ أرسلت شمسُ النّهارِ عليهِ أشعتها؟ والاستفهامُ للحثِّ على النّظرِ أو للإنكارِ أو للتّقرير حسبَ حالِ المخاطب، وأسند الرّؤيةُ إلى الله، ولكن المقصود النظر إلى إبداعِ الله بتقديرِ مضافٍ؛ وهي بصريّةٌ، وحالة مدِّ الظّلِ ناسبت الضّلال المتفشّي الذي ستسطعُ عليهِ شمسُ الهداية فينجلي شيئًا فشيئًا وذلك من منّتِه تعالى ولو شاء لما بعثَ رسُولاً ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ وذلك التّحرّكُ للظّلّ بإذنِ الله ولو أرادَ لجعلهُ ظلاًّ ثابتًا لا يتحرّك،[٦] وذلك بأن يجعل الأرض ثابتةً فيكون ظهورُ الشّمس واختفاؤُها في نقطةٍ واحدةٍ وتفوتُ نعمةُ فتراتِ النّهارِ المتنوّعة، والجملةُ اعتراضيّةٌ؛ ومن بديعِ التّذكيرِ القرآنيّ بها: لفتُ أنظارِ النّاسِ إلى نعمٍ عزَّ أن يتذكّرُوها مع أنّه لولاها لتكدّرت حياتُهم وساءت ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ثمَّ إنّنا جعلنا الشّمسَ المتمكّنة على نظامِ الظّلّ ظهورًا وزيادةً ونُقصانًا دليلاً يهتدي بهِ النّاسُ إلى مصالِحهم، وهذا

---

[٦] وفي هذا دليلٌ على أنّ المراد بالظّلّ ما نشأَ عن الشّمسِ لأن تحرّكهُ متعلّقٌ بها، وقد توسّعَ كثيرٌ من المفسّرينَ في تأويله لأجلِ تصويرِ كيفيّة مدّه وقبضِه حسب الواقع وما نصّت به الآية، فجعلُوه ما انعدم فيه الشّعاع ولو لم يكن للشّمس أثرٌ عليه أي: وقت ما بينَ الفجرِ وطلُوع الشّمسِ، واستأنسُوا في ذلك بأثرٍ لابنِ عبّاسٍ وبظلّ الجنّةِ المذكورِ في آياتٍ منها: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]، ويظهرُ بأنّ فيه تكلّفا، والآية ذكرت المدَّ والقبض وكفى بأنّهما حاصلان.

المقطعُ تضمّنَ ثلاث إشاراتٍ؛ إلى الحاجةِ إلى الظّلِّ؛ وعدمِ الاستغناءِ عنِ الشّمسِ؛ وإلى أثرِزيادةِ الظّلّ أونقصانِه في الاستدلالِ على الأوقاتِ والأعمالِ، وقد التفتَ من الغيبةِ إلى الخطابِ اهتمامًا بهذهِ المنن ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ وبعد تمامِ مدِّ الظّلِّ يأخذهُ الله بالإنقاصِ شيئًا فشيئًا لُطفًا بنا لتسير حياتُنا متوازنةً لا نتهيّأُ لمفاجأةِ حلولِ الشّمسِ ولا زوالِها، وقبضُه إليهِ كنايةٌ عن رُجوعِ أمرِه إليهِ وحدهُ كما بدأَ منهُ، وردّ الضّميرِ إلى اللهِ في كلَّ مرّةٍ دليلٌ على التّصرّفِ العظيمِ في الظّلِ بطريقةٍ عجيبةٍ لا يقوى عليها إلاَّ هو، والتّعبيرُبالمفعولِ المطلقِ"قبضا" قد أنشأَ دلالةَ التّمكّنِ من ذلك، وإنّ جعل هذا المظهرِ واقعًا على كلِّ الموجوداتِ الأرضيّةِ يطابق واقع حالتِها في قانونِ الفناء التّدريجيّ بعد النّموّ التّصاعديّ؛ فصحَّ تمثيلُ حياتِها بظلٍّ امتدَّ ثمَّ انقبض.

ولَمّا كان الظّلّ جزءً من حقيقةِ الظّلامِ ناسبَ أن يعقبه بآية اللّيلِ ملتفتًا إلى الغيبةِ تفنّنًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ والله وحدهُ مَن جعل لكم اللّيل للسّكون حيث هيّأَ فيهِ لباسَ الظّلامِ الذي يُساعدُ على ذلك، وفي "لكم" إثباتٌ للامتنان، والظّاهرُأنّهُ استعارَاللّباس هنا بالأخصّ من هيئةِ تغطيةِ النّائمِ لنفسِه استجلابًا للنّومِ؛ وبهذا يكون الله تعالى قد هيّأَ لهُ غطاءً علويًّا يرفعُ عنه مشقّةَ تهيئةِ جوٍّ مظلمٍ للرّاحةِ ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ وجعل لكم النّومَ سببًا لنيلِ الرّاحةِ واستردادِ الطّاقةِ، وأصلُ السّبات القطع؛ سمّي بهِ النّومُ لأنّه يقطعُ الأذهان والأبدان عنِ الأشغال، ويحسُن تأويلُ السّباتِ بالموتةِ الصّغرى أيضًا مقابلةً للنّشورِ؛ وليتسنّى الاستدلالُ من آيةِ النّومِ والاستيقاظِ على البعثِ ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ وهو الذي جعل النّهارمجالاً للنّشاطِ والحركةِ، وأوقع النّشرعلى النّهارِمبالغةً وإنّما النّهارُ سببٌ للنّشورِ، والآيةُ لَمّحت إلى بعضِ فوائدِ اللّيلِ والنّومِ والنّهاروفي ثنايا ذلك فوائدُ عظمى تتجلّى لمن استجلاها.

وتلاؤُمًا مع الحياةِ التي يبعثُها النّهارُ يذكُر الله نعمةَ الماءِ حيث إنه رُوح النّشاطِ في كلِّ الأعمال والأشغال؛ فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا﴾ والله هو الذي يبعثُ الرّياح تحملُ السّحب العظيمةَ يُبشّرُبها عبادهُ المتعطّشين إلى الغيثِ، وعموم لفظِ "الرّياح" بالجمعِ في القرآنِ يردُ للرّحمةِ ولعلَّ ذلك لما فيها من تنوّعٍ وتجزُّؤٍهو دليلُ كونها لطيفةً نافعةً، و"بُشْرًا" جمعُ بَشوركرُسل ورسُول؛ ومثلُه في قراءةِ نافع: ﴿نُشْرًا﴾ جمعُ نَشورٌ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أرسلها متقدّمةً على نزولِ الماءِ، وسمّيَ الماء رحمةً مجازًا

للمبالغةِ و إنّما الرّحمةُ حاصلةٌ بسببِه، وأضافها لنفسه"رحمته" لأنّها في قبضتِه، وفي هذا تمثيلٌ للماءِ النّازِل بسلطانٍ تقدّمه أعوانٌ يمهّدُون طريقه؛ وما بينَ اليدينِ استعارةٌ لتقدّم الريح المطر، شبهه بنحو سلطان يتقدم بين يديه خاصته أو أعوانه ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ وننزلُ من السّماءِ بلُطفٍ قطراتِ الماءِ المطهّرِ الطّاهرِ، وهنا التفاتٌ عن الغيبةِ"يرسل" إلى التّكلّم"أنزلنا" لأنّه أقوى دلالةً على الامتنان، والسّماء ما سما فوقنا من جوٍّ، و"طهورًا" ما يتطهر به، كسَحُورٌلما يُتسحّر به ونحوه غَسولٌ وفَطورٌووقُودٌ، أو للمبالغةِ كصبُور؛ فذكرُ الماء بالطّهارةِ البالغة دون الصّفاء ونحوه إشارةٌ جليّةٌ إلى كونه مطهّرًا، وقد أثبتتِ الأبحاث أنَّ ماء المطرِ عند نزوله هو أشدّ المياهِ نقاوةً ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ نزلُه لأجل أن نبعثَ بهِ الحياةَ في أرضٍ بعدَ أن كانت قاحلةً؛ والتّعبيرُعنها بالميت مجازٌعن ذلك كما أنّ حياتها مجازٌعن اخضرارِها، ووصفها بوصفٍ مذكّرٍ"ميتا" للتّخفيف بتأويلِ: مكانًا ميتًا،[٧] وبدأَ بذكرِ الأعمِّ فالأرض تستقبلُ الماء مباشرةً؛ وماء السّماء صالحٌ لإحياءِ كلِّ أنواعِ الأراضي، وذكرُ البلدةِ شمل الأرض والعباد والحيوان، وزادَ تخصيصًا بقوله: ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ أَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ ونجعله عذبًا صافيًا نسقي بهِ الأنعام والإنسان، و"أَنَاسِيّ" جمعُ إنسيّ وهو مرادفُ إنسانٍ، و"من" تبعيضيّة فهنالك مخلُوقاتٌ أخرى يسقيها؛ و إنّما ذكر الأنعام لشدّةِ علاقتها بالإنسان، وذكرَ خلقَها تنويهًا بأنّه لم يهمل بعد الخلقِ ما خلقَ، و"كثيرا" صفةٌ للأنعام والأناسيّ؛ نُكتتها بيان صلاحيّة ماء السّماء لهم جميعًا على اختلافِ تراكيبِهم؛ وليس المراد أنّ بعضًا لا يسقيهم، وبدأَ بالأنعام لكونها لا تتكلّفُ انتظار تهيئة الماءِ كالإنسان ولأنّ حياتها حياةٌ له؛ وليتناسق النّظمُ مع ما سيأتي.

ولَمّا كان الغرضُ من عرضِ هذهِ الآياتِ تذكيرالنّاسِ بالخالقِ العظيمِ كي يُقبلُوا على كلامِه نبّهَ إلى أنّهم لم يعيرُوا له اهتمامًا ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ ولقد جعلنا القرآنَ فيهم بيّنًا للتّذكّرِ؛ وهذا التّأويل أنسبُ مع التّذكّرِ؛ ومع قولِه السّابق: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾؛ ومع ذكرِ الجهادِ الكبيرِ بهِ بعدُ، وبعض المفسّرين جعل التّصريف للماءِ، مراعاة للسياق، بمعنى: أعطيناهُ ناسًا وحبسناهُ عن آخرينَ حسب حكمةٍ يعلمُها الله؛ أو بمعنى: جعلناهُ في هيئاتٍ وأوقاتٍ متنوّعةٍ، وهذا التّأويل مع قولِه "بينهم" أنسبُ،"صرّفنا": بينّا وخالفنا بين أحواله وقلّبناه من حال إلى حال ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ ليستحضرُوا

[٧] وقيل: الميتُ بالتّخفيفِ ما تحقّق موتُه؛ وبالتّضعيفِ (الميّت) لمن حُكم له بالموتِ.

عظمة الله في عطائِه ومنعه حيثُ غفلُوا عنها في الأحوالِ العامّةِ، والتَّأكيدُ المستفادُ من "لقد" تقريرٌ بأنّهم لم يعُوا حكمةَ هذا التّصريفِ ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فلم يشأ كثيرمن النّاسِ حالاً إلاَّ حال الإعراض عن نهجِ الله وكتابِه ليبقوا في غيّهم ومعاصيهم، وذكرُ الكثرةِ هنا فيهِ مقابلةٌ لطيفةٌ مع "أناسيَّ كثيرًا" وكأنّه قال: كلّهم إليَّ محتاجُون لكنّ أكثرهُم عنّي معرضُون.

وتتميمًا لإجابة اعتراض المشركين للرّسُول ﷺ احتقارًا لمكانته وطعنا في عالميّةِ رسالتِه في: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ يُطمئنُ رسوله ﷺ رافعًا من شأنه مثبّتًا لعزائمه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ولو أردنا لعبثنا في كُلِّ قريةٍ من قرى العالم نذيرًا لها تخفيفًا عنكَ ولم نجعلك نذيرًا لكلِّ العالمينَ، والمراد: كان إرسالك للعالمين رفعًا لشأنك فقابلهُ بما يناسبُه من الالتزامِ والجهدِ، فالآية عبّرت بطريقٍ أبلغ على كونِ رسالتِه ﷺ هي الخاتمة، وإذا نفت أن يكونَ ثمّةَ نذيرٌغيرهُ ففيهِ إيماءٌ قويٌّ لكلِّ داعيةٍ أن تكون دعوته طبقًا لدعوته ﷺ ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تطع الكافرين في الكفِّ عن دعوتِهم واللّينِ معهم بل ضاعف مجهودك أداءً لواجبِ التّبليغ، والنّهيُ واردٌ للتّحذيرِ فالرّسول ﷺ ليس ممّن يُظنُّ فيهِ الميلُ، وذكرهم بالكفرِ ذمًّا لهم فيما حملهم على مكابرةِ الحقِّ ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ودُم مجتهدًا على مقارعةِ أباطيلِهم، و"به" عائدٌ لغيرِمذكورٍعُلِم من المقامِ وهو: القرآنُ؛ أو إلى عدمِ الكفِّ عنهم المفهوم من "فَلاَتُطِعْ"، والجهادُ استفراغُ أقصى الطّاقةِ، ورد بصيغةِ المفاعلةِ لإفادةِ مقابلةِ جهدِ صبرِهم على آلهتهم بجهدِ الدّعوة، واستعمالُ المفعولِ المطلقِ"جهادا" ووصف الجهادِ بالكبيرِحثٌّ بالغٌ في حملِ النّفسِ على جهادِهم على أوسعِ نطاقٍ.

ثمّ يستأنفُ في ذكرِآياتِه الكونيّةِ المنبّهة على عظمتِه؛ ويذكُرآية البحرنهوضًا بفكرِه ﷺ من الرّقعةِ الضّيّقةِ إلى تصويرِ العالمِ بينَ عينيهِ للرّفعِ من همّتِه؛ وذلك مع تمثيلٍ بديعٍ في حفظِ الدّعوةِ الفتيّةِ من طوفانِ الشّركِ كما منع الله طُغيان البحرِ المالِح على العذبِ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ والله هو الذي جمع بينَ بحرينِ مختلفينِ دون أن يمتزجَ هذا بذاك، وأصلُ "مرج" خلط؛ وهو هنا مستعارٌ للمجاورةِ الشّديدة ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ بحرٌعذبٌ ماؤُه يُشربُ منه، و"فراتٌ" من الفَرتِ والفروتةِ أي شديدُ العذوبة، وإشارةُ القريب تنبيهٌ إلى تجاورِبين البحرينِ ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وبحرٌمالحٌ مرٌّفي الفمِ، و"مِلْحٌ" صفةٌ بمعنى: مالِح؛ وتعبيرُ الآيةِ من فصيحِ اللُّغةِ، و"أجاجٌ" متأجّجٌ بالمرارةِ والمُلوحةِ لا يصلُح

للشّربِ، وبينَ "فراتٌ وأجاجٌ" طباقٌ ناشئٌ ضمنَ مقابلةٍ بينَ نوعي الماء ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ وقد جعل الله بين البحرينِ حاجزًا ومانعًا حصينًا من اختلاطِهما، والبرزخُ الحاجزُ، وذلك معنويٌّ بتنافرِ ذرّاتِ كلٍّ من الماءينِ عن بعضِهما، وجمهورأهلِ التّحقيقِ على معنى: النّهر العظيم يدخُل بحرًا فيبقى جاريًا في وسطِه كيلُومتراتٍ لا يختلِط؛ واختلفُوا في تحديدِ الإقليمِ المقصُود، وقالت طائفةٌ: أراد هنا مقابلةَ مياه الأنهارِ العذبة ونحوها بمياه البحارِ والحاجزُ بينهما اليابسة، والرّأي الأسبق بالإعجازِ أنهض.

وفي الآية إعجازعلمي كبير، فقد اكتشف مؤخرا عدم امتزاج الماء العذب بالماء المالح في المناطق الذي يلتقي فيها ماء النهر بماء البحر، وقد أمكن تصويره، حتى أن الناظر إليه يظن وجود حاجز حقيقي بينهما، فسبحان من علم محمدا ذلك قبل قرون كثيرة.

ومناسبةً لتنوّعِ النّاسِ المفهوم من ذكرِ القرى والبحارِ البعيدةِ يدمجُ إحدى مظاهرِ عظمتِه في خلقِ البشرِ على تنوّعٍ يرجعُ إلى أصلٍ واحدٍ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ والله وحدهُ من أبدع الإنسان من الماءِ، وهو ماءُ المنيّ الدّافقِ، و"بشرًا" للجنسِ الإنسانيّ بلا تعيينٍ، وتنكيرُهُ لتفخيمِ شأنه، وسمّى الإنسان بشرًا لأنّ ظاهرهُ بشرةٌ بخلافِ الحيوانات التي تكون شعرًا أو صوفًا أو ريشًا، وفي هذا بيانٌ لعجيبِ إخراجِ الشّريفِ من الحقيرِ، ثمّ يبيّنُ عجيبَ قدرته في إكثارِه ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فجعله بعد ذلك متكاثرًا على سنّةِ التّزاوجِ، ونسبُ الإنسان جهةُ أبوّته وما امتدّ عنها، وصهرُه قرابة امرأته؛ كما أنّ صهر المرأةِ جهة زوجها، والأصل: فجعله ذا نسبٍ وصهرٍ وعبّر بالمصدرِ للمبالغةِ، والهاءُ عائدةٌ للبشر، والواو للتّقسيم بمعنى "أو" والمرادُ: وازنَ بينَ إخراجِ ذكورٍ يصنعُون النّسب و إناثٍ تتحقّقُ بهنّ المصاهرة، وتوسّعَ بهذا على ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَوَالْأُنْثَى﴾ [القيامة ٣٩] ليصفَ الشّبكة المتشعّبة في التّزاوجِ التي صنعت في مجملِها نظام الشّعوبِ والقبائل ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ وكان ربّك يا مُحمّدُ ﷺ على ذلك كلّه وغيرِه قديرًا، وفي هذا استدلالٌ بقدرته على تأييدِ نبيّه ﷺ بدليلِ التّعبيرِ بلفظِ الرّبوبيّةِ المضاف إلى المخاطبِ، وفي "كان" دلالة توغّلِ قدرته في الأزلِ وهي من صفات الله الأزلية، وصيغةُ "فعيل" للمبالغةِ.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾.

وبعد بيانٍ شافٍ لعظمةِ الله نبّه إلى أنّ النّاس تركوا مَن شأنه أن يُعبد وعبدُوا غيرهُ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ ويخضعُون بالعبادةِ لمن لا يكسبُ لهم جلب منفعةٍ ولا إيقاع ضرٍّ على أيّةِ حالٍ إلاّ بإذنِ الله؛ ويترُكون عبادة الله الذي قد ظهرت لهم أحقّيّة العبادةِ له وحدهُ، والخبرُ واردٌ للتّعجيبِ منهم، ونفيُ الضّرّوالنّفعِ معًا إبطالٌ لكلّ وجوهِ استحقاقِ ما عبدُوهُ للعبادةِ، وشملتِ الآيةُ كلّ معبودٍ حتّى من العُقلاء، والتّعبيرُبالمضارع في الأفعالِ الثّلاثةِ لإفادةِ إصرارهم على عبادةِ من استحالت ظهورجدوى عبادتِه؛ وتلك عينُ العَماية ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ ومن شأنِ الكافرِ أنّهُ متجرّئ على الله بالتّواطؤ مع غيرِه من أهلِ السّوء لمواجهةِ الله بما لا يرضاهُ، وتلك علّةُ إصرارِه على غيّه ولو تجرّأ للحقّ لظهرَ له، وذكر "الكافر" ليصفهُم بالكفرِ؛ و أفردهُ لإرادةِ الجنس، وذكر لفظَ الرّبوبيّةِ بالإضافةِ إليهِ تنبيهًا لتعاليه على مَن لطفَ بحاله، وظهيرٌبمعنى مظاهرأي معين؛ مأخوذٌ من هيئةِ مساعدٍ غيرهُ بالحملِ على الظّهر.

ثمّ يُبطل عموم مزاعِمهم في الرّسُول ﷺ مذكّرًا له بمهمّته؛ ومحدّدًا له مجال نشاطِه كي لا يُفكّر مغتمًّا في سببِ إعراضِهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ولم نكلّفك أيّها الرّسُول ﷺ إلاّ بمهمّةِ التّبليغِ مبشّرًا بالجنّةِ من عَمِل ومنذرًا من النّارِمن عَمِي، وذكر البشارةَ هنا خلافًا لمطلعِ السّورةِ التي ذكر فيها الإنذاروحده توطئةً لذكرِعبادِ الرّحمن، و أبقى النّذارةَ وأورَدها على المبالغةِ لأنّ شأنَها أظهر حيثُ شاعَ الكفرُوالعصيان.

ويأمرُ الرّسُول ﷺ بأن ينزّه نفسه من أيّ مطامع قاصرةٍ قد تجعلُهم يتأخّرُون عن قبُولِ دعوته ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أخبر قومك بأنّك لا تسألهم مكافأةً على دعوتِهم بالقرآنِ وأجرك كلّه على الله، وفي "من أجرٍ" تعميمٌ لنفيِ الأجرِ، وعبّر بالأجرِ مجازًا عن عمومِ المنافِع والمطامع لأنّ عدم سؤاله الأجر الحسّيّ ظاهرٌ لهم، وهذا التّأييدُ المستفادُ من "قل" ونحوه؛ نوعٌ من بيانِ مظاهرةِ ومناصرة الله لرسُوله على الكافرينَ ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ الاستثناءُ منقطعٌ على تقديرِ مضافٍ، أي: لا أسألُ إلاّ إقبالَ مَن يحبُّون أن يسلُكوا طريقًا إلى الجنّةِ، وفي هذا تأكيدٌ لنفيِ سؤالِ الأجرِ بذكرِ ما هو أجدرُ بالسّؤالِ في حينِ كونه نقيضَ المطامع المادّيّة تفنّنًا في دعوتِهم، وفي ذكرِ الاتّخاذِ تنويهٌ بضرُورةِ العزمِ الأكيدِ في الإقبالِ، وفي "ربّه" استنهاضٌ لعقُولِهم: كيفَ يتمردون ويفرون من مالكهم وسيّدِ أمرِهم! وهنا أيضًا تقدير مضافٍ أي: إلى رحمةِ ربّه.

ويُرشدُ رسُوله ﷺ إلى ما فيهِ العون على دعوته بعيدًا عن حظوظِ الدّنيا ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ واعتمد في كُلِّ أمورِك على الله، واختار التّعبير باسمه "الحيّ" لإثباتِ معاني الحياةِ الكاملةِ له إشارةً إلى علّةِ إلزاميّة التّوكّلِ بمن هو قائمٌ على كُلِّ أمر، وأكّد قيامه على الأمورِ بدفعِ توهّمِ أسبابِ الفناء أو الذّهولِ في حقّهِ، وذلك ليس لأحدٍ إلاّ لله فوجب التّوكّل عليهِ وحدهُ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ ونزّه إلهك بذكرِ ما يُحمدُ به دون ما يوهم منقصةً أو يقدحُ في ذاته كادّعاءِ الشّريكِ والولد، وموقعُ هذا التّوجيه هنا لدلالةِ: عليك بهذا ولا يضرّك من ضلّ، والتّسبيحُ تخليةٌ والحمدُ تحليةٌ فحصلَ بهما تمامُ التّعظيمِ ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ وحسبُك اطّلاعُ الله الشّامل على جميع ذنُوبِ عبادِه، والتّعبيرُ "كفى به" مبالغةٌ في وصفِ كمالِ شيءٍ لا يُحتاجُ معهُ إلى غيرِه، وأصلُه: كفى الله، وهو إخبارٌ مستعملٌ في توعُّدِهم وتهديدِهم وفي تسليتِه ﷺ لئلاّ يغتمَّ بحالِهم وأمرِه بتفويضِ أمرِهم إلى ربّهم.

ثمّ ذكر ما تقتضيهِ صفةُ الحيّ الذي لا يموتُ تقريرًا لأحقّيّته في التّوكّلِ عليه والتّسبيحِ بحمدِه ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هو الذي أوجدَ السّماواتِ العظيمة والأرض الواسعة وما بينَ السّماواتِ والأرض عبر ستّةِ مراحل، وقيل: هي مدّةٌ بمقدار أيّامِ الدّنيا، وعلى كُلٍّ هو تنبيهٌ إلى حكمةِ الله في الإنشاء ولو شاء لخلقها بلا وقتٍ يُذكر، وفيهِ تربيةٌ للخلقِ ليعُوا أنّ كلّ إنجازٍ قد جعل الله من سنّته التّدرّج حتّى يصل إلى الكمالِ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الاستواءُ على العرش:

التَّصرّف المطلقُ في الملكِ والسَّيطرةُ عليه، و"ثُمَّ" هنا ليسَت للتَّراخِي الزَّماني؛ لأنّ الله غَنيٌّ عن الأمْكِنة والأزمِنَة وغنِيٌّ عن تغيُّر أحوالِه وهيئاتِه، فهِي للْبُعدِ المعْنَوي وليسَ الحسيّ، والمعنى: والأهم من ذلك استواؤه على العرش،أو هي بمعنى الواوِ.[٨] ﴿الرَّحْمَنُ﴾ خبرٌلمبتدإ محذوفٍ أي: هو الرّحمن بكلِّ خلقه؛ وعلى هذا التّأويلِ مزيدُ بيانٍ لسببِ استحقاقِه التّوكّل بأنّه مسعفٌ بلُطفهِ من توكّل عليهِ، وجميلٌ جعلُه خبرا للذي السّابق أي: الذي خلقَ كلّ ذلك الرّحمنُ ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ كلامٌ جرى مجرى المثلِ في إثباتِ المتكلّمِ الرّتبة المعرفيّة لنفسه، معناهُ: فاسأل العارفين بالله عنهُ، بتقديرِ: هو الرّحمن فاسأل خبيرًا بهِ عنهُ، وقدّم "به" للفاصلةِ واهتمامًا بالذي وقعت خِبرةُ الخبيرِفيه؛ أوتُفسّر الباء بمعنى: عن، أو الصّفةُ للهِ والباءُ صلةٌ؛ والتّقديرُ: فاسألِ الله الخبيرَيُنبئكَ عن نفسه.

ولَمّا استغرق في بيانِ كمالاتِ الله انتهاءً باسمِ الرّحمن الذي يستوجبُ التّذلّل له استنزالاً لرحمتِه بيّن أنّ الكفّار أبوا أن يخضعُوا له ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ وإذا أمر الرّسُول ﷺ الكفّار بالسّجودِ لربِّ السّماواتِ والأرضِ المتّصفِ بالرّحمة الشّاملةِ لكلِّ شيءٍ، والخبرُسيق للتّعجيبِ منهم، والسّجودُ أولى أن يُحمل على الخضوعِ لأنّ المخاطبينَ كفّارٌ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ أجابُوا مستهزئينَ مستغربين: ومن هو الرّحمن الذي تدعُوننا إليهِ؟ واستعمالُ "ما" دون "من" يُصوّرُ غايةَ إنكارِهم وكُفرِهم، وهذا على نحوِ قولِ فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشّعراء: ٢٣]، وقيل: لم تكنِ العرب تعرفُ هذا الاشتقاق من الرّحمة وإن كانت فهمت دلالته؛ حتّى إذا دعاهُم الرّسُول به استنكرُوه.[٩] ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هل تظنُّ أنّنا نخضعُ للذي تدعونا إليه؟ والاستفهامُ للنّفيِ والامتناع أي: لا نخضعُ، وفي هذا إمعانٌ في الإعراضِ عمّا وجّههم إليهِ فكأنّهم مستعدُّون لأيّ سجودٍ إلاّ سجودًا يأمرُهم بهِ لأنّهُ إيمان واعتراف بالإله الذي لم يُوقنُوا به، ولذلك قال: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ وزادَهم تذكيرُك لهم بالله ابتعادًا عن الحقِّ على ابتعادٍ كانُوا عليهِ، وإسنادُ الزّيادةِ لأمرهِ: "اسْجُدُوا" مجازٌو إنّما كُفرُهم نفّرَهم، وهنا موضعٌ

---

[٨] ينظر مثلا: الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

[٩] وفي سورةِ الإسراء إشارةٌ إلى هذا المعنى لَمّا قالُوا حدّد لنا إلها نعبُدُه؛ الله أو الرّحمن؛ فأُجيبُوا: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ..﴾ [الإسراء: ١١٠].

من مواضع السّجدات المتّفقِ عليها سُنَّ لنا السّجود فيهِ إرغامًا للنّفسِ لتُخالفَ الذينَ يأبون السّجودَ لله.

ولَمّا أثنى الله على نفسه بخلقِ السّماواتِ والأرضِ فصّل في بديعِ نظامِه فيهما ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ تعاظمَ شأنُ الإله الذي خلقَ في السّماءِ الدّنيا كواكب بديعةً، والبُروجُ جمعُ برجٍ وهو الموقع العالي؛ سمّيت بهِ كواكبُ السّماءِ لتبوّئها تلك المكانة، وقيل: مواقِعُ النّجومِ والكواكِب، والامتنانُ بهذا الجعلِ امتنانٌ بمنافعِه في تحديدِ الأماكنِ ومعرفةِ الأوقاتِ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ وجعل في السّماءِ شمسًا تشعُّ نهارًا وقمرًا يُنيرُ ليلاً وفق نظام محكمٍ، والسّراج الشّمس مقابلةً بالقمرِ؛ وبدليل: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] شبّهها بالمصباحِ اللّيليّ الوهّاج في إزاحتِه للظّلمةِ تشبيهًا بليغًا للأعلى بالأدنى، وبدأ بها لأنّ نورالقمرِ ناشئٌ عنها، والقمرُ ما بعدَ اللّيلةِ الثّالثةِ وقبله هلالٌ، ولَمّا كانت الشّمسُ والقمرُ سببا في حصُولِ اللّيلِ والنّهارِ أعقبَ ذلك قائلاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ والله هو من سخّر تعاقُب اللّيلِ والنّهارِ، و"خِلفةً" كخليفة اسمٌ لِما خَلفَ مقامَ غيره جاء بوزنِ الهيئةِ، ولأنّ طبيعةَ الحياةِ أحوالٌ مختلفةٌ بين السّرّاء والضّرّاء والنّعماء والبأساء؛ فقد هيّأ الله أزمنةً يتشابهُ بعضُها ببعضٍ ليُستدركُ فيها الخيرُ الفائتُ ويُعالجُ فيها السّوء الواقع؛ وذلك أدعى لاستمرارِ الحياةِ على الأملِ والعمل، وذلك ما أفادهُ في: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ لمن شاء أن يتفكّر في عظمةِ الله فيدرك تقصيره في حقّه، ويشكُرهُ على عظيمِ آلائه باستعمالِ نعمِه في عبادته، والتّذكّر تكلّفٌ في استحضارِ ما غاب عنِ الذّهن، وأوردهُ بالفعلِ المضارعِ لأنّه من شأنه أن يحصل بالمدّةِ، وأطنب في بيانِ التّذكّر والشّكور حثًّا عليهما لأنّ مدار العبادةِ فيهما، وفي الانتهاء إلى هذا تخلّصٌ بديعٌ لذكرِ عبادِ الرّحمن.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)﴾.

ويتفرّغُ إلى أحوالِ عبادِه الذين أبوا أن يكونوا ممّن لم يخضعُوا للرّحمن؛ مبيّنًا منهجَ طريقِه الحقّ بعد أن أبطلَ منهج الكفرِ والشّرك في سالفِ السّورةِ ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ والخبرُ عنهم في "الذين" على أنّ الآية نزلت في الصّحابةِ، أو هو مؤخّرٌ إلى ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ على كونها عامّةً، والآيةُ وإن نزلت في رجالِ الإسلامِ الأوائل تعمُّ غيرهُم، وأضافهُم إليهِ تشريفًا لَمّا كانُوا حقًّا عبيدهُ وفقَ ما أرادهم عليهِ من الخصال الآتية التي بلغت زُهاء إحدى عشرةَ خصلةً، وبدأها بأثرِ اسمِ الرّحمن فيهم إذ كانوا رُحماء خلقِه ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فهم الذين لا ترى فيهم إلاّ مظاهر التّواضع أينما حلُّوا وارتحلُوا، وفعلُ المشي هنا أوسعُ دلالةً من مجرّدِ تحريكِ الأرجلِ، وذكر الأرض زيادةً في تقريرِ التّواضع لأنَّ كونها موضع المشي معلُومٌ، و"الهون" الرّفق؛ وهو في الآيةِ بتقديرِ مشيًا بهونٍ، واهتمَّ بهذهِ الصّفةِ بدايةً لأنّها تعكسُ حقيقةَ نُفوسهم العظيمة فهي ليست مظهرذلٍّ بقدرما هي عنوانُ جانبِهم الأخلاقيّ، وهنا تنبيهٌ إلى أنّهم دعاةٌ إلى الله بحسنِ سيرتهم كما سيُنهي خصالهُم بقولهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ وإذا تعرّض لهم السّفهاءُ بأقوالٍ تجرحُهم لم يكن من

شأنِهم إلاّ الرّدّ عليهم بلغةِ السّلامِ والصّفحِ بلسانِ الحالِ والمقالِ، والجهلُ في الآيةِ عكس الحِلم، وقد كان شأنُهم بالنّهارِ تركٌ للسّوءِ وتحمّلٌ للأذى ارتقوا به إلى أرقى المراتب، ويبيّن مصدرخلُقهم ذلك ببيانِ شأنِهم في اللّيلِ؛ وكأنَّ مدرسة قيامِ اللّيلِ علمتهم بأنَّ الكبرياء لله وحدهُ فلم يتعالوا على خلقه ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ وهم الذين يحيُون جزءًا من ليلِهم يقيمونه لله متضرّعينَ، والبياتُ شهودُ اللّيل بنومٍ أو بدُونه، وعبّر بالمضارع لاستحضارِ مقامِهم وبيانِ أنَّ ذلك ديدنٌ فيهم، وذكر السّجود والقيام اهتمامًا بأبرزِ مظاهرِ إحياء اللّيل، وبدأَ بالسّجودِ وأورده بالتّضعيفِ لزيادةِ اهتمامٍ بهِ ولأنّ الكفّارأبَوهُ، وذكرلفظَ الرّبوبيّةِ تنبيهًا إلى دافِعهم إلى القيامِ وهو استشعارُقدرِالله وفضلِه، وزادَ دافعًا آخر قرنه بهذا فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ وهم الذين من شأنِهم أن يدعُوا الله في كلِّ وقتٍ تيسّرلهم بقولهم: ربّنا أبعد عنّا عذاب جهنّم، وهذا الدّعاء لازِمُه أنّهم يخافُون أسباب العذابِ فيحرصُون على اجتنابِ المنهياتِ وفعلِ المأموراتِ، والمضارع في "يقولون" أفاد تجدّد الإلحاح منهم، وفي هذا رجاءٌ قويّ منهم في رحمةِ الله فُهم من تجدّدِ دُعائهم، وخوفٌ بالغٌ من عذابهِ حيثُ عدّوا أنفسهم ممّن استحقّ العذاب فطلبُوا دفعه عنهم ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إنّ عذاب جهنّم عذابٌ لازمٌ لا يُفارقُ أصحابه، و"غراما" اسمٌ للهلاكِ اللازم، مأخوذٌ من الغُرمِ إذ يلزمُ صاحبه، وهذا التّعليلُ والذي بعدهُ من كلامهم أو هو لله، وأكّدهُما لأنّهما ممّا من شأنِه أن يُستبعد ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ إنّ جهنّم قد ساءت مكانًا للاستقرارِوالإقامةِ الأبديّةِ، والمستقروالمكان اسمانِ لمكان واحد، حاصلُه واحدٌ نوّعَ اسمهُ لزيادةِ بيانٍ، وأطال الكلام في صفتِهم هذهِ تنبيهًا إلى أهمّيتها عندهُم فهي تُصوّر مبلغ اعتدالِ الخوفِ مع الرّجاءِ فيهم، وهذه الآية من أدلة خلود أصحاب النار، ولوكانوا موحدين إذا ماتوا على غيرطاعة لله، خاصة وأنها تتكلم عن المسلمين الموحدين وليس عن المشركين ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ وهم الذين يُنفقُون من أموالهم في وجوهِ المباحِ والواجِب كالنّفقةِ على النّفسِ والأهلِ؛ وهذا لم يذكُرهُ وإنّما استفيدَ من السّياقِ، لكنّ إنفاقهم معتدلٌ لا يميلُ إلى البذخ المذموم ولا إلى التّقتيرِ المذموم، ولعلَّ هذا شملَ أمناء أرزاقِ النّاسِ المخلصينَ في المجتمعِ والدّولةِ، والظّاهرُ أنّهُ أراد هنا النّفقة المادّية فحسب، وبين الإسرافِ والتّقتيرِ طباقٌ فأحدُهما يُفسّرُ الآخر بالضّدّ، وزادَ بيانًا لتلك الوسطيّةِ بقوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ وكان إنفاقًا معتدلاً بين الحالين

أضحى بذلك سببًا لدوامِه ولم يحرم مستحقّوهُ منه، والقَوامُ العدلُ؛ يُقالُ قاومَهُ قوامًا إذا انتزع حقّهُ منهُ، وذكرَ هذا احترازًا من وصفِهم بالرّهبانيّةِ؛ فالإنفاقُ حاصلٌ بجُهدِهم للكسبِ وطلب المال ومن آثارِه تمتّعُهم بالملذّاتِ.

وبدأَ بصفاتٍ فعليّةٍ لعبادِ الرّحمن قد لا يظهرُ عظيمُ قدرٍ لها ليَلفت الانتباهَ إليها؛ ثمّ جاء إلى صفاتٍ تركيّةٍ من آثارِ الجاهليّةِ تُعدُّ من فظائع الآثام ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وعبادُ الرّحمن هم الذين لا يُشركون في عبادته أيَّ إلهٍ بأيّ نوعٍ من أنواعِ الشّركِ، والدّعاء مستعملٌ للعبادةِ مجازًا لأنّهُ من أجلى مظاهرِها، ولَمّا كان اختلافُ الدّينِ مدعاةً للمنافرةِ وكانت المنافرةُ مسرحًا لشتّى الاعتداءاتِ نبّهَ إلى تورُّعهم في الدّماء والأعراض، ولم يورد الاسم الموصول في الصّفتينِ الآتيتين إشارةً إلى ارتباطِها بهذهِ الصّفة وإلى أنّهما في الإثمِ بمنزلةٍ قريبةٍ من الشّركِ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهم الذين يقدّرُون للنّفسِ البشريّةِ قدرها؛ فلا يعتدُون عليها إلاّ بوجهٍ مشروعٍ بيّنتهُ النّصوص الموثوقة، كالشّركِ والارتدادِ والزّنى بعد الإحصانِ، ونحو هذا القتلِ إذا لم يكن بيدِ الإمام العادل كان أيضًا قتلاً بغيرِ حقٍّ؛ وهذ الآية نزلت تمهيدًا لمشروعيّةِ الجهادِ وبناءِ دولةِ الإسلام، لأنه ذكر فيها القتل بالحق، والأصلُ: حرّمَ الله قتلها فحذفَ مبالغةً في عدِّها في كلِّ أجزائها وأحوالِها محرّمة ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ ولا يعتدُون على محارِم الله ولا يقربُونها بنظرٍ ولا لمسٍ ولا اشتهاءٍ، واخترنا هذا التّفسير لأنّنا نُهينا عنِ الزّنى وكل ما يقرّب منه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ [الإسراء:٣٢] أمّا حقيقة الزّنى فلا تكونُ إلاّ بالوطء، وذكر الزّنى عنوانًا لفواحشِ الفرجِ كلِّها فهم لا يأتُونها جميعًا، يقُول القطب: "لا يخفى أنّ آيات تحريم الزّنى دليلٌ على وجوب التّزوّج..."[١٠] لأنّ مخالفة الفطرةِ دافعٌ للمعصيةِ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ والذي يقترفُ معصيةً ولو واحدةً من تلك المعاصي سيحملُ وزرًا عظيمًا يلقى عليهِ جزاءً فظيعًا؛ لأنّ الاعتبار بالفعلِ لا بكمّهِ ولا بنوعِه، والأثام مثل الآثام جمع إثمٍ؛ أو جزاء الإثمِ كوبالٍ ونكالٍ ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ولا يُصرفُ عنه عذابُ جهنّم يوم يقُوم النّاسُ للحسابِ بل سيلقى فيهِ عذابًا مضاعفًا بقدرِ تضاعُفِ آثامِه، وقيل: المضاعفةُ هنا بمعنى: شدّته أوزيادته الحاصلة بالخلُودِ ﴿وَيَخْلُدْ

[١٠] محمّد بن يُوسف أطفيّش: **تيسير التّفسير**، ج١٠، ص٢١٨.

فِيهِ مُهَانًا﴾ ومع كلِّ ذلك سيكون خالدًا فيهِ أبدًا لا يجدُ فيهِ إلاّ المهانة جزاء وفاقًا لاستهتارِه بأحكامِ الله، وفي ذلك جمعٌ بين عذابِ الجسدِ والنّفسِ وكلاهما في درجةٍ لا تُطاق.

والآية الكريمة دليل صريح على تخليد الكبيرة صاحبها في النار.والعياذ بالله.إن مات غيرتائب منها

ومن لطيفِ اعتدالِ المنهجِ القرآنيِّ التّنبيهُ إلى بابِ التّوبةِ المفتوح بعد ذكرِ أفْظَع الوعيدِ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ إلاَّ مَن أخلص لله توبةً قبل الوفاة أي أتمَّ شُروطها الأربعة: استغفارٌوندمٌ و إقلاعٌ وعزمٌ على عدمِ العودةِ مع التّنصّلِ من التّبعاتِ، والمشركُ توبتُه الإيمان الصّحيح، وبهذا ظهر أنّ لكلِّ كبيرةٍ ممّا سلفَ توبة حتّى قتلُ المؤمنِ للمؤمنِ عمدًا والتّوفيقُ بيدِ الله ﴿وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وبعد التّوبةِ اجتهدَ في الحفاظِ على الإيمانِ والعملِ الصّالحِ فرضًا ونفلاً، وركّزَ على العملِ بإيرادِ المفعولِ المطلقِ"عملا" الذي يفيدُ وقوع الفعلِ بتمكّنٍ توطئةً لقولِه: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ فأولئك أحرياءُ بأن يُغيّر الله اجتهادَهم في كسبِ السّيئاتِ حبًّا في تحصيلِ الحسناتِ وذلك حصنٌ لعدمِ العودةِ،[11] ونتيجةً لذلك يجعل الله من همّهم على السّوءِ سببًا لكسبِ الحسناتِ بدلَ السّيّئاتِ؛ مصداقًا لحديثِ أبي هريرةَ أن رسول الله ﷺ قال: (يقول الله: إذا أراد عبدي أن يعمَل سيّئةً فلا تَكتُبُوها عليه حتّى يعملها، فإن عمِلَها فاكتُبُوها بمثلِها، وإن تَرَكها مِن أجلِي فاكتُبُوها له حسنة).[12] ونتيجةً لهذا أيضًا أنّهُ سيُجازيهم بالتّوبةِ من سيّئاتِهم حسناتٍ عظيمةً ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ والله عظيمُ المغفرةِ لمن صلُحت توبتُه واسعُ الرّحمةِ به، فحاصلُ الآيةِ حثٌّ على الاجتهادِ في العملِ الصّالحِ بعد التّوبةِ ليمحو الله حبَّ المعصيةِ من القلبِ ويكون ذلك سببًا للتّنصّلِ من جميعِ آثارِها لنيلِ المغفرةِ الإلهيّة.

وقد يختلجُ في النّفسِ بوادر القنوطِ من رحمته بعد اقترافِ عظائم الإثمِ فأكّد خطوةَ النّدمِ والإقلاعِ وبدايةَ الإصلاحِ بما مفادُهُ: من أتى بذلك فقد تاب؛ فقال: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ومن أحدث التّوبة وشرع في العملِ الصّالحِ مهما سبقَ من حالِه، أعاد هذا ليبني عليهِ: ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ فإنّه في طريق الرّجوعِ الصّحيحِ إلى ربّه؛ والمراد: فليدُم عليهِ فالله يقبلُه، وأكّد توبته بـ"إنّ"

---

[11] وظاهرُ الآيةِ بيانٌ لأمرٍ دُنيويٍّ وإن كانَ ظاهرُ معناهَا: قلبُ السّيّئاتِ التي فعلها حسناتٍ في الجزاء؛ وهذا لا يظهرُ إذا قارنّاهُ مع النّصوص الكثيرة التي تكتفي بتكفيرِ السّيّئات، وتخيّلناهُ مثلاً: كيفَ يجعلُ عددِ مرّاتِ القتلِ بعدَ التّوبة حسناتٍ في حفظِ النّفس؟! وهذا بخلافٍ بينَ: من يرى بأنّها توبةٌ بعد شركٍ، ومن يترُك ذلك مطلقًا استئناسًا برحمته الواسعة، وهل العبدُ ناجٍ بإخلاصِه أم بمقدارِ أعماله؟

[12] رواهُ البخاري، ك: التوحيد، ب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُون أن يُبدّلوا كَلَام الله﴾، ر: ٧٥٠١، (١٤٤/٩).

وبالمفعول المطلق لأنّها تقرّرت بالأعمالِ وتأكّدت، هذا والإطناب في بيانِ صفات الرّحمن فيه تأكيدٌ لهذهِ القاعدةِ بأنّه من تو ابِع التّوبة إيجادُ الصّلاح لأنّ الطّبيعةَ تأبى الفراغ، وفي هذا الاستطرادِ مع التّوبةِ اهتمامٌ بشأنِها في هذا المقام.

ثمّ يلمّحُ إلى علاقاتِهم الاجتماعيّة بالحديثِ عن مجالِ الإشهادِ الذي يعكسُ مبادئهم السّلميّة المنصفة لغيرِهم؛ فشهادةُ الزّورِ عنوانٌ لتحاملِ الأحزابِ والعُشراء وذوي الجاه ونحوهم على غيرِهم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ والذين لا يدلُون بالشّهاداتِ الكاذبةِ على غيرِهم ليصرفُوا الحقوق عن أصحابِها، والآيةُ بتقديرِ لا يشهدُون شهادةَ الزّور، والزّور الميل؛ سمّي الكذب به لأنّه انحرافٌ عنِ الصّواب، وفسّر "الزّور" بعمومِ الباطلِ فأفاد أنّ عباد الرّحمن لا يقربُون أهل الباطلِ ومجالِسهم، وعلى هذا فالشّهودُ حضورٌ أو إقرارٌ بما رأتهُ العينُ ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ وإذا تعرّضوا إلى ما لا فائدةَ لهم فيهِ تراهُم يترفّعُون عنه محافظينَ على كرامتِهم، واللّغو كلّ ما لم يظهرله وجهٌ من الفائدةِ الدّنيويّةِ أو الأخرويّةِ ولو لم يكن محرّمًا، سمّيَ بذلك لأنّ شأن مثله أن يُلغى ولا يُثبَت، وجدّد فعل "مرُّوا" ليبنيَ عليهِ "كرامًا"؛ والآية من بديعِ التّركيبِ البلاغيّ فقد شبّهَ حالهم بمن مرَّ على قذرٍ فتخلّص منهُ لم يتلطّخ بشيءٍ، والآية نبّهت إلى أنّهم لا يعتزلون عامّةَ النّاس ولكن يجعلُون حدودًا في التّواصلِ معهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ وهم الذينَ إذا وعظوا بآياتِ القرآنِ لم تحملهم أنفُسهم على الكبرِ بل سمعُوها بقلوبٍ واعيةٍ، وفي هذا استعارةٌ لحالِ المستغشي لثوبِه النّازلِ بوجهه لكيلاَ يرى ما أمامه أو يسمعه لكراهته له، وذلك كما يُستعارُ القيامُ للاهتمامِ بالأمرِ، وفي الخو اتِيم أوردَ هذه الصّفة تنبيهًا إلى أنّ اكتساب تلكم الصّفاتِ متعلّقٌ بها فالذي سدَّ باب الخيرِ عن نفسِه لم يجنِ إلاّ عليها وفاقدُ الشّيءِ لا يُعطيه ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ وهم الذين يدعون بإلحاحٍ: ربّنا امنح لنا مِن جهة أزواجنَا وذرّيّاتنا ما تقرُّبهِ أعيُننا، وتلك كنايةٌ عن رُؤيةِ المبرّاتِ منهم، فهو دعاءٌ لهم بالصّلاحِ تربيةً على ردّ إحسانِهم بالنّفعِ والقربِ إحسانًا بالدّعاء، و"من" بيانيّةٌ أو ابتدائيّةٌ وليست تبعيضيّةً، وبدأ بالأزواجِ لأنّ صلاحهم سبب أساسيّ لصلاحِ الذّرّيّة، و"قرّةُ" من القرّ أي الثّبوتِ لأنَّ الشّيء المليح يطولُ تركيز العينِ عليه، وتنكيرُ "أعينٍ" أفادَ توسعتَهم في طلبِ أمورٍ كثيرةٍ من الأولادِ والأزواجِ تنشأُ عن صلاحِهم ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ووفّقنا

لنكون رمزًا يقتدي بهِ أهلُ التّقوى، وهو طلبُ تكليفٍ مع تشريفٍ، والأصلُ "أئمّةً" وعبّر بالمفردِ لجوازِه أو بتقديرِ: كلُّ واحدٍ قال ذلك كما أوردَ الأزواجَ والذّرّيّة جمعًا لهذا الغرض، وانتهى بهذهِ الخصلةِ لما فيها من التّربيةِ بالقدوةِ؛ وإصلاحِ النّفسِ قبل التّفكيرِ في تغييرِ الآخر؛ وبناءِ الإصلاحِ مَن أقربِ الدّوائرِ أي الأهل، وبتمامِ هذهِ الصّفات تقرّر أنّ أجمل أوصافِ أهلِ الإيمانِ في القرآنِ مَن أصلحَ ذاته وكان قدوةً لغيرِه.

ولَمّا أطنب في بيانِ صفاتِ عبادِ الرّحمن أخبرعن جزاء مَن التزم بكلّ تلك الصّفاتِ ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أولئك جديرُون بنيلِ المقاماتِ العالية من الجنّةِ جزاءً لصبرِهم على أذى الدّنيا وعلى الطّاعاتِ وتركِ المنهياتِ، و"الغرفة" البيتُ السّكنيّ العالي الشّريف؛ وأريد بها هنا الجنس وقد جمعها في قوله: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] وهي في عمومها كنايةٌ عن استحقاقِ أرقى الثّوابِ، وفي الآيةِ تصريحٌ بأهمّ ما حمل عباد الرّحمن على تحقيقِ صفاتِهم تركًا أو فعلاً وهو: الصّبر ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ ويُعطون في الجنّةِ أزكى التّحيات والتّسليمات من الملائكةِ ومن بعضِهم، وضعّف الفعل "يلقون" لإفادةِ لازمه وهو رُؤيتُهم في الجنّةِ كلّ دواعي السّلام والخيرِ دون الكدرِ والسّوء، والتّحيّةُ والتّسليمُ حاصلُها واحدٌ نوّعَها مبالغةً في وصفِ إكرامهم؛ ومثلُ ذلك في "مستقرًّا ومقامًا" ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يبقون فيها أبدًا لا يشاؤون منها خرُوجًا لشرفِها ولا يُخرجون ولا يتعرّضُون لموتٍ ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ طابت لهم مكانًا للاستقرارِ والإقامة حيثُ خلت من كلّ الآفاتِ؛ وفي هذا مقابلة نبيهةٌ مع قولِه السّالفِ عن النّارِ: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ليعتبر بفارقِ المقامِ الشّاسع كلّ ذي بصيرة.

ثمّ يلتفتُ بالخطابِ إلى الكفّارِ متوّجًا لنذارةِ الرّسُول ﷺ التي افتتحت بها السّورة آمرًا إيّاهُ أن يُبيّنَ لهم حاصل شأنِهم ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ لم يكن الله ليأبه بكم لكُفرِكم لولا مشيئتُه أن تمتدَّ دعوتُكم التي جاء بها نبيكم، و"يعبأُ" من العِبء وهو الثّقل؛ يُقالُ: لم يعبأ بهِ أي لم يهتمَّ بشأنه؛ تمثيلاً لمن أبى أن يحمل شيئًا عن غيرِه، والدّعاءُ الدّعوةُ إلى أمرٍ، وحاصلُ الآيةِ على هذا: ليس الله مهتمًّا بشأنِكم ولا منتفعًا بهِ ولولاَ أن دعوةَ رسُولهِ قائمةٌ فيكم لنلتُم جزاءكم فقد كذّبتُم به.

وقيل معنى الآية:ما يَفْعَل بكم ربي لولا دُعاؤه إياكم لتَعْبُدوه وتُطِيعُوه، وقيل المعنى: ما يفعل بكم لولا تَوْحِيدُكم، أَي: لاوزْن لكم عنده إلا بتَوحِيدُكم﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ فقد كذّبتُم بما

دُعيتُم إليهِ فستتحمّلُون عو اقبَ تكذيبِكم، واسمُ "يكون" غيرُ مذكورٍ فُهِمَ من المقامِ؛ أي: يكونُ العذاب، والأسلوب مستعملٌ في التّوعّدِ والإنذارِ، و"لزامًا" من الملازمة عكس المفارقةِ؛ عبّربه مصدرًا فحصلت بذلك مبالغةٌ وبكونِه تضمّن معنى اللُّصوقِ بهم،

تمّ بحمد الله تعالى تفسير سورة الفرقانِ وتليها سورةُ الشّعراء.

## تفسير سورة الشعراء

سورة الشّعراء مكّيّةٌ كلّها على الرّاجح، وهي في تعداد النّزول السّابعة والأربعون بعد سورةِ الواقعةِ وقبل سورة النّمل، هي ثاني أكبر سورة من حيث عدد الآيات بعد البقرة بها سبعٌ وعشرُون آية ومئتان، اهتمّت بأصولِ الدّينِ والتّوحيدِ شأنَ السّورِ المكّيّة؛ إلاّ أنّها اختصّت بجانبِ القصصِ أكثر، تُقرّرُ كلّ مرّةٍ منهج الرّسلِ في الدّعوةِ إلى تقوى الله وطاعةِ الرّسُول مبيّنةً سنّة الله في التّعامل مع الأكثريّة التي تأبى الإيمان؛ في مقاطع آياتٍ صغيرةٍ سهلةِ المأخذ، وسمّيت بـ"الشّعراء" لذكر الشعراء في آخرها، ولتفرّدِها ببيان حكم الشعر من سائر القرآنِ.[١٣]

افتتحتِ السّورةُ بتوجيهِ الرّسُول ﷺ إلى سبيلِ معاملةِ قومه الذين طالبُوهُ بالخوارقِ، ثمّ تفرّعت لقصصِ جملةٍ من الرّسلِ مع أقوامِهم لبسطِ العبرةِ من خلالها وتسليته ﷺ بها، بدايةً من موسى مع فرعون والسّحرة ثمّ إبراهيم الخليل؛ ومن خلالِ قصّتِه يُذكّر بمصيرَيْ النّاسِ يوم يبعثون، ثمّ يستأنفُ في قصّة نوحٍ وهودٍ وصالح ولوطٍ وشُعيبٍ -على الرّسل السّلام-، وأخيرًا يعود إلى التّذكيرِ بقيمةِ القرآنِ وعلم أهلِ الكتابِ به وأنّه لم تتنزّل به الشّياطين ولا كان من قبيل كلام الشّعراء؛ مسطّرًا المنهجَ الصّحيح للرّسُول ﷺ ومتوعّدًا المعرضين عنهُ؛ بعد أن قرّر لهم بأنّ آياتِه الكونيّة وصدق الرّسلِ كافِيان عن كلّ آيةٍ يطلُبونها.بسم الله الرحمن الرحيم

### تقريرُ سبيلِ الإيمان الصّحيح وتهديدُ المكذّبين

﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾.

﴿طسم﴾ حروفُ القرآنِ: طاءٌ وسينٌ وميمٌ ونحوُها، أُتي بها إعجازًا بأنّ الخلق لن يقووا على تأليفِ نصٍ مثله مع أنّ مادّته بينَ أيديهم ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ تلكَ الحرُوف التي تتلى على مسامعِكم

---

[١٣] ويُطلق عليها بعض أهل التّفسير: (طسم الشّعراء) تفرقة بينها وبين (طسم القصص) و(طس النّمل)، وأيضًا: (الجامعة) لعلّه لجمعها قصص الأنبياء باستفاضة في أوّل ما نزل.

وما بعدها هي آياتُ الدّستُورِالواضِحِ في نفسِه ببلاغتِه وإعجازِه والموضّحِ لمنهجِ حياتِكم، وإشارةُ البعد "تلك" للتّعظيم في مقامِ الإعجازِ بالقرآن ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أوشك غمّك أيّها الرّسُول على عدمِ إيمانِ قومِك يُوقعك في الهلاكِ إذا استمررت فيه، والمرادُ بهذا تسليتُه ﷺ لئلاَّ يفعل، وفي الكلامِ تقدير: لألّا يكونوا، ولم يقل: لأن لم يُؤمنوا؛ وعبّر بما أفاد الاستقبال باستعمالِ فعلِ الكونِ لمزيدِ إقناطِه من إيمانِهم فيما يأتي كما لم يُؤمنوا فيما مضى، و"باخعٌ" اسمُ فاعلٍ من بخعَ إذا هلك قتلاً؛ استعيرَ من البِخاعِ وهو عرقُ القفا يُقال: بخع الشّاةَ إذا ذبحها وتجاوزَ العظمَ حتّى كادَ ينزع الرّأس ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ فاعلم أنّهُ لو أردنا إنزال معجزة خارقةٍ عليهم لأجلِ أن نحملهم بها قهرًا على الإيمانِ لفعلنا، والتّعبير بـ"إن" مشعرٌ باستبعادِ الإنزال، وذكر "من السّماءِ" تأكيدًا للنّزولِ المبهر؛ لأنّ في "ننزّل عليهم" دلالة كافية عليهِ، وضعّفَ فعل "ننزّل" لتقريرِ الإرادةِ في الإنزالِ؛ وأوردهُ مضارعًا لاستحضارِ هيئتِه العجيبةِ، وعبّر بحرفِ الاستعلاءِ لدلالةِ تمكّنِ الآيةِ منهم جميعًا، ونكّرَ "آيةً" لتخيّلِ عظمتِها ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ فظلّوا للآيةِ بعد نزولها خاضعينَ؛ كما نتق الجبل وصيّرهُ فوق رُؤوس بني إسرائيل فانقادُوا، وجعل الخضوع لأعناقِهم مجازًا لأنّها مظهرُ الخضوع إذا خفضوها، وتلك كنايةٌ عن الانخذال بعدَ التّعالي، وأورد "ظلّت" بالماضي لتحقيقِ الوقوع، والأصلُ: لها خاضعة؛ وإنّما راعى ضمير "هم" فأوردهُ بجمعِ التّذكيرِ للعقلاء، والحاصل: لم نشأ جعل ذلك سببًا للإيمانِ وأردنا أن يُؤمنوا اختيارًا بالغيبِ وذلك أجدى في تسويقِ الدّينِ الجديد.

ثمّ يُفصّلُ في إعراضهم عمّا قرّرهُ الله سببًا لهدايتِهم ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾ ولا يصلُ إلى قومِك شيءٌ مِن القرآنِ من قِبلِ الله بما يفهمونه ويُعالج واقعَ حالِهم، وعبّر بالمضارع لإفادةِ استمرارِهم على الإعراض بعدَ كلّ إتيانٍ؛ و"مِن" صلةٌ لاستقصاءِ عمومِ أحوالِ إتيانِ الذّكرِ، و"محدث" أي: جعله الله جديدًا؛ ولا يتعارضُ مع "الذّكر" فإنَّ القصّةَ مثلاً قد تتكرّرُ لتعالج واقع حالٍ جديدٍ فتعدُّ جديدةً، وهذا من إعجازِ القرآنِ حيثُ لا يبلى مهما طالَ الزّمان وبَعُد المكان، واختار اسم "الرّحمن" ليبني عليهِ التّعجيب منهم حين أعرضُوا عمّن من شأنه أن يرحمهم؛ معرّضًا لرسوله ﷺ بأنّ أمثال هؤلاءِ لا ينبغي أن يُؤسف على حالِهم، وفي وصف القرآن الكريم بأنه "مُحْدَث"، ما يدل على أنه ليس قديما، وإنما هو كغيره من المحدثات التي أحدثها الله وخلقها في أزمنة محددة؛

لأن"محدث" اسم مفعول، وهذا يعنى أنه وقع عليه فِعْل، وهذا هو شأن المحدث جميعا، التي وجدت بعد أن لم تكن موجودة، وكونه كلام الله لا يعنى أنه قديم، و إنما نسب إلى الله لأن الله هو الذي ركبه وسبكه على هذه الصورة فهو من الله لا من غيره. ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ إلاَّ قابلُوهُ بالإعراضِ الشّديدِ، ولم يقل: أعرضُوا عنه؛ وعبّرَ بفعلِ الكونِ الماضي"كانوا" تأصيلاً لتحقّقِ النّفورِ منهم، وقدّم "عنهُ" للفاصلةِ ولبيانِ أنّهم خصّوا الذّكر بالإعراضِ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ ونتيجةً لتأصّلِ الإعراض فيهم فقد ردُّوا ما جئتَهم بهِ أيّها الرّسُول ﷺ إذ قالوا عنك مجنونٌ وشاعرٌ وساحرٌ وغير ذلك كما طعنُوا في القرآنِ بقولهم إنّه كذبٌ وأساطير ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فسيرونَ جزاءَ تكذيبِهم، والأسلوب للتّوعّدِ والتّهديد، والأنباء جمعُ نبأ وهو الخبر العظيم، وعبّر بإتيانِ الأنباءِ مجازًا عمّا ينتُج عنها من عذابٍ، وجعلَها أنباءَ الاستهزاءِ مبالغةً ليُصوّر أنّ ردّهُم للدّعوةِ كان مجامعًا للهزء الكبير بأمورٍ كثيرةٍ كان الرّسُول ﷺ يُنبئهم بها، واستعملَ فعل الكونِ"كانوا" وأوردَ "يستهزئون" بالمضارعِ زيادةً في تقريرِ استهزائهم وتخييلِه للعيانِ مناسبةً لتوعّدِهم.

وبعد أن بيّن تكذيبَهم بالذّكرِ يبيّنُ أنّهم قد أهملُوا ما جعله سببًا لإدراكِ عظمةِ الله فلذلك ضيّعُوا الاهتداء إلى كلامه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ أ كذّبَ قومُكَ أيّها الرّسُول ﷺ فكان تكذيبُهم مانعًا من أن يتأمّلوا في الأرضِ البديعة؟! والاستفهامُ لتوبيخِهم؛ حيثُ لم ينظرُوا نظرَ تأمّلٍ يُفيدُهم، وإلفاتُهم إلى الأرضِ علاجٌ لهم حيثُ كان شأنُهم التّعالي والغرُور؛ كما أنّه شمل استدلالاً على أصولِ تكذيبِهم من الإشراك و إنكار البعث ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ كم أبدعَ الله فيها من أنواعِ النّبات الباهر التي قد احتفلَ كلّ نوعٍ منها بمنظرٍ بهيجٍ ونظامٍ حكيمٍ، والزّوجُ النّوعُ، وكريمُ النّوعِ مختارُه، و"كم" للتّكثيرِ؛ فحصل إعجازٌ بالتّفرّدِ بالإنباتِ وإعجازٌ بإبداعِ الأجود وإعجازٌ بعدمِ إحصاءِ الأزواج، وفي "كلّ" إعجازُ أنّه لم يُنقص نوعًا كان ينبغي أن يُوجد إلاّ وأوجدهُ، وإدماج "كريم" هنا براعةٌ في عرضِ الاستدلالِ في ثوبِ الامتنان فحاجةُ الإنسانِ للنّباتِ الكريمِ داعيةٌ للتّأمّل فيه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ إنّ فيما أبدعه الله في الأرضِ لدلالةً عظيمةً على أنّه وحدهُ ربُّ هذا الكونِ المستحقّ للعبادة أرسل الرّسُول و أنزل القرآنَ ووعدُهُ بالبعثِ والحسابِ، و إفرادُ "آية" للجنس، و أكّد الكلام تثبيتًا لفحواهُ الذي أنكرهُ المكذّبُون ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ غيرَ أنَّ أكثرَ من يرَونَ تلكم الآياتِ عَلِمَ الله أنهم لا يُصدّقُون فلذلك

قد كذّبُوا، وهذا الإخبارُ تحدٍّ في الحقيقةِ بخلافِ ما سيأتي من أمثالِه لأنّ المستهدفين به يومها أحياء ومع ذلك لا يسعُهم إبطالُه، وفي ذكرِ الأكثريّةِ احترازٌ من الأقلّيّةِ التي تُصدّقُ؛ ومن تربيةِ القرآنِ رعاية المعنى الأدقّ في الحُكم على النّاس ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإنّ ربّكَ اللّطيف بكَ وبمن آمن معك عظيمُ العزّةِ لا يضرُّه كفرُهم؛ واسعُ الرّحمةِ لا يُعاجلُهم بالعقابِ، وقدّم العزّة لإثباتِ قدرته عليهم؛ وهي تقتضي الانتقام غيرَ أنّها حينَ اقترنت بالرّحمةِ اقتضت الإمهال، وأكّد الكلامَ تقريرًا لحكمتِه الحاصلةِ من مجموعِ ذلك، وسيتجدّدُ هذا النّظم سبعَ مرّاتٍ في السّورةِ بعد كُلِّ قصّةٍ ترسيخًا لفحواهُ حيثُ صارَ بخلاصةِ ما جمعهُ كالاستنتاجِ الذي يحصُل كلّما جرت أسبابُه.

## قصصُ الأنبياء

### ١- قصّةُ موسى عليه السلام مع فرعون والسّحرة وبني إسرائيل

#### أ- بعثُ موسى عليه السلام إلى فرعون ومَنُّ فرعون عليه

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)﴾.

ثمّ يشرعُ في قصصِ الأنبياءِ بدايةً من قصّةِ موسى المؤيّدِ بأخيهِ هارُون -عليهما السّلام- وابتدأ بها لأنّها الأطول ولكونها أقرب دلالةً ببقاءِ آثارِ الرّسالةِ الموسويّةِ وأنسب بالغرضِ الذي افتتحت بهِ السّورة ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ واذكر أيّها الرّسُول ﷺ شأنَ ربّكَ إذ خاطب رسوله موسى عليه السلام من جانبِ الطّورِ الأيمنِ، وأسلوب الآيةِ تعظيمٌ للمنادِي وتشريفٌ للمنادَى، وإذا ذَكرَ الرسول ذلك لنفسه فلتسليتها؛ أو لقومِه فلتهديدِهم، ولا نعلم حقيقة هذا الكلام، ولا كيفيته، فالوقوف عن الخوض في كيفيته أسلم، مع تنزيه الله عن الأصوات والكلام المعهود من المخلوقات، لأنه ليس كمثله شيء

سبحانه وتعالى، ولذا رجّحُ بعض أهل العلم أنّه نداءٌ بكلامٍ خلقه له بلا واسطةِ ملكٍ، والله أعلم بحقيقة الأمر﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ "أن" تفسيريّةٌ تأتي بعد ما يُفيد معنى القولِ فهي بمنزلةِ قال ربُّك: ايتِ قومَ فرعون الظّالمينَ لأنفسهم بالشّرك والمعاصي وللخلقِ بالدّكتاتوريّةِ والتّعالي، ودخل فرعون فيهم بالأولى، وفي ابتدائه بوصفِهم بالظّلمِ وتكرير لفظِ القومِ تعليلٌ لسببِ إرسالِه عليه السلام إليهم و إثباتٌ للظّلمِ عليهم؛ ليُشمّر بكلّ حزمٍ لردّ طوفانِ ظُلمهم، وعلى ضوءِ هذا يُفهم اعتذارُ موسى الآتي لربّه وتأييدُهُ بهارُون عليه السلام ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استفهامُ إنكارٍ على الغائبين كيف ينتفي تقواهُم؟! موجّهٌ للمخاطبِ لتعجيبِه من حالِهم؛ ثمرتُه أن يتّجهَ إليهم قائلاً لهم: اتّقُوا الله على عو اقبِ ظُلمكم، كما سيذكُر عمّن بعد موسى عليه السلام ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وفيه تلميحٌ إلى ظلمهم العظيم الذي بلغُوهُ.

أجاب موسى عليه السلام نداء ربّه باستحياءٍ وتوسّلٍ قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ يا ربِّ إنّي أخشى أن يواجهوني بالرّدّ ولا يسمعوني، وحذفُ ياء التّكلّمِ في نحوِ "يكذّبُون" شائعٌ في القرآنِ تحسينًا للفواصِل، وقد وطّأ بهذا الاستعطافِ و أكّدهُ استجلابًا للتّأييد وليس فيه رائحة تقاعُسٍ عن الواجب، وقد أوضح عذرَه هذا وفرّع عليهِ وبيّنه بما يأتي بعدهُ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ وتغتاظُ نفسي لتكذيبهم وكبريائهم وتضيعُ حُجّتي أمامهم فلا أجدُ كيفَ أُقنعُهم، وضيقُ الصّدرِ وعدم انطلاقِ اللّسانِ كنايةٌ عن ذلك، وتلكَ أحوالٌ نفسيّةٌ طبيعيّةٌ يعرفُها أهل الخطابةِ والمناظرة، وليس في هذا دليلٌ على أنّ موسى عليه السلام ضعيف البيان؛ فمن قدّر للمو اقِف أقدارَها شقَّ بتخطيطِه لها طريقًا لعبُورِها؛ وحوارُه الذي سينجحُ مع فرعون خير دليلٍ ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ فابعث جبريل عليه السلام إلى هارُون ليأمره بأن يكون مؤازري ومؤنسي،[١٤] وأصلُ الكلامِ هذا: إبداعٌ في الإيجازِ ليعكس مقام الطّالبِ المستحيي، بأمرٍ من هو أعلى للالتماس، ويُحتملُ أنّ هارُون بعيدٌ عنه حينها، أو هو استئذانٌ أدبيٌّ ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ وقوم فرعون يُطالبونني في دعوى قضائيّة على أنّي قتلتُ واحدًا منهم فإنّي خائفٌ أن يقتُلوني به اغتياظًا، وهذا الذّنب ليس هو الإثم الشّرعيّ بل أرادَ ما حكم به القوم

---

[١٤] ويظهرُ أنّ موسى ما طلبَ إلاّ مجرّدَ تأييدٍ، ووصفُ أخيه بأنّهُ ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، وأنّ في لسانه هو عقدةٌ كما في: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [طه: ٢٧]، أدبٌ مع الأخِ وتواضعٌ مع النّفس؛ ألا ترى الفصحاء يقتدُون بموسى في هذا عند فاتحةِ خطابهم، وإن حُمل على أنّه حقيقةٌ فلا عبرة به لأنّ الفصيح سينحبسُ كغيرِه إذا وقف أمام الجبّارِ، هذا مع اعتبارِ أنّ القصّةَ في عمومها لم يظهر فيها كلامٌ لهارُون عليه السلام.

عليهِ أو ما تعارفت عليهِ البشر من شناعةِ القتلِ، وخوفُه من القتلِ طبيعةٌ إنسانيّةٌ انبنى على خوفِه من التّكذيبِ فكان خوفًا من تعطّلِ الرّسالةِ إذا قُتِل قبل خوفِه على نفسه.

يعقّبُ الله على موسى عليه السلام مبطلاً تخوّفهُ من القتلِ ﴿قَالَ كَلَّا﴾ لا يقتلُونكَ، ثمّ يجيبُه في إرسالِ هارُون عليه السلام معه؛ فيقُول مجدّدًا الأمر ومانحًا له بطاقةَ أمانٍ على زوالِ خوفِه من التّكذيبِ وضيقِ الصّدرِ و انحباسِ اللّسانِ: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ فاقصدَا قوم فرعون ومعكم معجزاتُنا الدّالة على عظمتنا، واعلما أنّا معكما بالتّأييد نسمعُ ما يجري بينكما وبينَ القومِ، وعبّر بصيغةِ الافتعال للمبالغةِ فكان استماعه كناية عن علمِه، وعلمه دليلٌ على تأييدِه، واستعمل ضمير العظمةِ"إنا" تأكيدًا لقدرته على التّأييدِ، والمعيّةُ معيّةُ علمٍ أو تأييدٍ فيكونُ خاطبَ الاثنينِ بالجمعِ تشريفًا، ثمّ يوجّههم إلى رأسِ القومِ تحديدًا ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فاقصدَا فرعون بذاته و أبلغاهُ بأنّكما أرسلتُما من عندِ ربِّ العوالِم الكونيّةِ كلِّها، وفي هذا تعريضٌ بأنّه مربُوبٌ وليسَ إلهًا كما سيدّعي، ولفظ "رسُول" بمعنى مرسول أفردهُ جوازًا، وتعيينُ ما يقولانه بصريحِ العبارةِ التي لا تتحمّلُ أكثر من معنى تلطّفٌ بحالِهما في الموقِف الحرِج بأن يقولاَ ما لا يخافانِ معهُ انحباسا في النّطقِ ولا اضطرابا في معناهُ ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ "أن" تفسيريّةٌ تضمّنت معنى وقولا له: أطلق بني إسرائيل المستعبدين عندكَ ليغادرُوا أرض مصرَ معنا أحرارًا، واشتمالُ دعوةِ موسى عليه السلام على هذينِ الأصلينِ اشتمالٌ لصالحٍ أُخرويٍّ ومنفعةٍ دنيويّةٍ.

واستجاب موسى وهارُون -عليهما السّلام- لما أُمرَا بهِ؛ وهذا محذوفٌ من بابِ البراعةِ في فنّ الحكايةِ بالانتقالِ إلى الأهمّ إذا عُلمَ ما سُكت عنه، ويردُّ فرعون على دعوتهما موجّهًا الخطاب إلى موسى لأنّه الأصلُ ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ ألم نتكفّل برعايتِك و أنت صبي؟ وفي الآيةِ تقديرُ مضافٍ أي: في وسطِنا الملكيّ، والاستفهامُ حملٌ لموسى على الإقرارِ مع الإنكارِ عليه بعدِّه لنسيَانه ذلك، والوليد حديثُ العهدِ بالولادةِ، وهذا في الحقيقةِ من قبيلِ الاحتقارِ الذي يقعُ فيهِ المتعالون مغالطةً لأنّ الرّعاية ليست معيارًا للإلزامِ على التّبعيّةِ ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ وقضيت من عمرِك معنا مدّةً زمنيّةً تقدّرُ بالسّنين، وكأنّه يقول: من أين تعلّمت هذا ومتى صرتَ تترفّعُ على أولياءِ أمرِك؟ وهوّل الأمر عليهِ أكثر موبّخًا له وقادحًا في رسالتِه أملاً في أن يرجعَ عنها بقولِه: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ وارتكبت

جنايةَ القتلِ في حقِّ واحدٍ منّا مقابل كلِّ ما كان لك منّا، والأسلوب مستعملٌ في التّجريمِ القضائيِّ الذي لا يرى فيهِ الجاني وضعًا أفضل له من السّكوتِ، و أفردَ "الفعلة" ونسبها إليهِ وتحاشى ذكرَها مبالغةً في تصويرِ شناعتِها وإلصاقِها بهِ، وفي تكرّرِ اشتقاقها بالمرّاتِ الثّلاثِ جناسٌ بديع ﴿وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قتلت مع كونكَ متجرّئًا لإنكارِ فضلنا عليك، ويُحتملُ أرادَ و أنت من الكافرين بديانتنا ليجمعَ لهُ تهمةَ الخروج الدّينيّ أيضًا.

يردُّ موسى عليه السلام على فرعون بدايةً بالأهمِّ ممّا أرادَ إفحامه به معترفًا بزلّته بقتلِ نفسٍ خطأً: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا﴾ أجل قد وقعت منّي جنايةُ القتلِ قبل أن أكون رسُولاً، والآيةُ بتقديرِ: فعلتُها إذ فعلتُها؛ كأنّه قال: ذلك زمنٌ وهذا زمنٌ أفلا توقّعت أنّي أصلحتُ حالي! أو "إذًا" أصلُها "إذن" وقُدّمَ الفعلُ عليها تعجيلاً بالاعترافِ ﴿وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ممن يفعل الأمر على غير بصيرة، إذ لم أدر انه يموت بركزي إياه أو أخطأت يدى إليه وكنتُ مبتعدًا عن جادّةِ الصّوابِ حين عاملتُ بالقوّةِ في مقامِ التّأديبِ والإصلاحِ، وفي هذا تربيةٌ نبويّةٌ على الإقرار بالخطأ كلّما وجهت الأصابعُ إليهِ ولو قد صدقت التّوبة منه، واختار بعضٌ حمل الضّلالِ على حقيقتِه؛ أي: كنت يومئذ على غير معرفة بالحق لعدم وجود شريعة كقولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضّحى: ٧]، والأوّل أظهر والثّاني أنسبُ مع التّتمّة ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ وقد فررتُ من مدينتكم إلى مدينَ لَمّا خفتُ أن تقتُلوني في فترةٍ احتقنت فيها الأعصابُ، وربّما كان في نظامِهم القاتلُ خطأً معفوّ عنه فيُؤخذ موسى عليه السلام بلا حقٍّ لكونه أجنبيًّا؛ فلا يُعدُّ هذا فرارًا جبانًا قد يُؤاخذُ به غيرُه ظِنّةً، تهدئةً لأولياء المقتُول ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وحينَ علم الله حسن حالي منحني قدرًا عظيمًا من الحكمةِ وجعلني رسُولاً فجئتُكم بأمرِه، وقيل: الحُكم النّبوة، وعبّر بلفظِ الرّبوبيّةِ مضافًا إلى نفسِه تعزيزًا لدعوةِ فرعونَ إلى الإذعانِ له كما أذعن له موسى، ولم يقل: وجعلني رسُولاً ليضمّ نفسه في سلكِ من سبقه وذلك أدعى لتصديقِه ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ عتابٌ بتقديرِ استفهامٍ إنكاريٍّ حاصلُه: هل تمنُّ عليَّ بأن عبّدتَ قومي؟! و"أن" مصدريّةٌ، حوّل نعمتهُ إلى نقمةٍ فأفحمهُ لأنّ انفصال موسى عليه السلام عن أهلِه واستفادته من رعاية فرعون مبنيٌّ على ظرف استعبادِ قومه، فلا معنى للإحسان إلى واحدٍ مع إذلال الباقين فأبطلَ عليهِ أن

يكون مثله محلّ منّةٍ على أحدٍ مع شدّةِ جبروته على الخلقِ، و"تلك" إشارةٌ إلى الرّعاية في قصرِه، و"نعمةٌ" بمعنى: منّةٌ، والمنُّ: ذكرُ المتفضّلِ ما تفضّلَ به للمفضَّلِ عليهِ.

### ب- تعريفُ فرعون بربِّ العالمينَ وردُّه على موسى عليه السلام

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)﴾.

وحينَ رجعَ موسى عليه السلام بفرعون إلى الغرضِ الذي انطلقَ منه وذكّرهُ بنفسِه المتغطرسةِ تنبّهَ فرعونُ فسأله مستغربًا متعجّبًا: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وما ربُّ العوالِم هذا الذي تقصدُ؟ أَوَثمّةَ إلهٌ غيري؟ وقال بعضٌ: طلبَ هذا على سبيلِ الإعجالِ بمعنى: سمعنا بادّعائك الرّسالة وما ربُّ العالمين؟ أجابه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هو ربُّ السّماواتِ العلا والأرضِ وما بينَهما من المخلوقاتِ الكثيرةِ التي أبدع صورَها وأحكم نظامها، وهذا الجواب على طريقِ الأسلوبِ الحكيم فإنّ سؤال فرعون يقتضي أن يُشخّص له الذّات الإلهيّة أو يميّزَ جنسها وهو مستحيلٌ؛ فأجابَ بما لم يتوقّعهُ وفيه طريق معرفةِ الله الصّحيح ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ إن كنتُم أهل طلبٍ لليقين تستخدمونَ عقُولكم فيما ينبغي أن تُستخدم فيهِ، لتُدركوا أنّ الموجوداتِ البديعة لا بُدَّ لها من موجدٍ ومبدعٍ؛ ومن تناسُقها يظهرُ لكم بلا شكٍّ أنّ صانعها واحدٌ، وموسى عليه السلام في هذا يغتنمُ دعوةَ الكلِّ وإن كان حديثُه اتّجَه إلى فرعون.

ردَّ فرعونُ على موسى عليه السلام بكلِّ سخريّةٍ مخاطبًا الملأ حوله: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ هل سمعتُم ما قال؟ والمضارعُ لحكايةِ حالٍ ماضيةٍ، والسّينُ والتّاء للمبالغةِ، والاستفهامُ لجلبِ الانتباهِ وإنشاءِ التّعجيبِ من ادّعاءِ وحدانيّةِ الإله، وهو بهذا ترك التّعليق على مسألةِ ربوبيّةِ الله اكتفاءً باحتقارِ شأنِها عمومًا شأنَ المناظرِ العاجز، أو هو تعجيبٌ من سُكوتِهم على ما ينبغي ألاّ يُسكت عن مثله.

وحينَ وجدَ موسى عليه السلام تعثّرًا في هذا الدّليلِ العامّ انتقل إلى الدّليل الأخصّ بهم قائلاً: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ذلكم الرّبُّ هو ربُّكم وربُّ أجدادِكم السّابقين، ذكّر عامّةَ القومِ بأنّ فرعون كواحدٍ منهم ولا أمارةَ على أنّهُ إلهٌ، كما ذكّر فرعون أنّه عبدٌ لله و ابنُ عبدٍ له، وبقِدمِ الله حيثُ أوجد أسلافه، واستدلّ له بإيجادِه كما أوجدَ من سبقهُ، وأعجزهُ بذلك عن استحقاقِ الألوهيّةِ على قومه فضلاً عن أسلافه، ونبّههُ إلى أنّهُ سيموتُ كما ماتَ من قبلهُ، والإلهُ لا يكونُ مولودًا ولا مخلُوقًا ولا حديثًا ولا يموتُ ولا يكون إلهًا لبعضٍ دونَ بعضٍ أو في وقتٍ دُون وقتٍ.

ردَّ فرعونُ بعدَ الطعن في أصولِ ديانتِه وعقليّاتِ أتباعِه بما يوحي بغضبِه فقال: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ رسُولُكم هذا الذي جاءَ إليكم لقد أُصيب بجنُونٍ حقًّا! وحُكمه عليهِ بالجنونِ ناشئٌ عن تكلّمِه بما لم يعقلوهُ من لُغةِ الإيمانِ، وأكّد الكلام إثباتًا لمدلُولِه الذي من شأنِه أن يُردَّ؛ فموسى عليه السلام لا يُرى عليهِ أثرٌ من الجنون، وعدّهُ رسُولا لهم إمعانًا في الاستهزاء ممّا يدّعيهِ من الرّسالةِ وتنزيهًا لنفسهِ عنها؛ و أثبت ذلكَ مرّةً ثانيةً تنفيرًا لهم منهُ حيثُ تلقّوا رسُولاً مجنونًا.

ويُجيبُ موسى عليه السلام على هذا الاستهزاء الكبير غير ضائقٍ به صدرهُ؛ مقلعًا عن الجدالِ في الحجّةِ السّالفةِ وما رُمي بهِ من الجنونِ: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هذا من بابِ تصويرِ الشّيءِ من عدّةِ أوجهٍ تنبيهًا للغافلِ عنه في حينِ أنّ حاصلهُ واحدٌ؛ وهو الأرض التي ذكرها قبلاً، وقيل: لَمّحَ بهذا إلى نظامِ الشّمسِ فيكون شبيهًا باحتجاجِ إبراهيمِ عليه السلام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] الذي قطع به كلَّ حجّةٍ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كنتم حقًّا تستخدمون عقُولكم، وقد بدأ بالملاحقة فحثّهم على اليقين ثمَّ أغلظَ لَمّا وُصف بالجنونِ معيدًا الكرّةَ عليهم مثبتًا كمال عقلِه دُونهم.

ثمَّ يُفصحُ فرعون عن حقيقةِ ما يرمي إليهِ مرتقيًا مع موسى عليه السلام إلى أسلوبِ التّهديد شاهدًا على ضعفِه في مناظرته: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ وعزّتي لئن اعتقدت بأنَّ لك معبُودًا غيري لأحكمنَّ عليكَ بالسّجنِ النّافذ، واللاّمُ في "لئن" موطّئةٌ لقسمٍ، وضيّق عليهِ حريّة اعتقادِه وأكّدَ وعيدهُ تقويةً لإرهابِه وإمعانًا في كسرِ جرأته لإيقافه عن دعوتِه، وتغاضى عن تعيينِ

ربّه الذي دعاهُ إليهِ إصرارًا في إنكارِه وليشمل كلَّ إلهٍ، ولم يقل: لأسجنّنك مبالغةً في تخويفِه بما قد حصلَ لأفرادٍ قبله.

### ج- بيانُ موسى عليه السلام لدلائل رسالتِه و إيمانُ السّحرةِ

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾.

ثمَّ يتلطّفُ موسى عليه السلام مع فرعون دفعًا لشرّه وطمعًا في إيمانِه منطلقًا بلسانِه إلى أمرٍ جديدٍ يقُول: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أتحكُم عليّ بالسّجنِ ولو أنّي أتيتُك بأمرٍ يُوضّحُ بكلِّ شفافيّةٍ بأنّي رسُول ربِّ العالمين؟ والاستفهامُ استعلامٌ خالطهُ إنكارٌ واستغرابٌ، والمجيء مستعارٌ للإظهارِ والتّقديم، وأبهم الشّيء إغراءً لفرعون بطلبِه، ولم يُباغتهُ بالآيةِ واستأذنهُ ليدخل بيوت الحجج من أبوابِها، ردَّ فرعون: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فاعرضهُ إن كنتَ حقًّا صادقًا، وعبّر بفاءِ التّعقيب تعجيلاً له، واستعمل "إن" استبعادًا لصدقِه. وينفّذُ موسى عليه السلام ما وعدَ به سريعًا ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ رمى عصاهُ المعرُوفة لديه فإذا هي تتحوّلُ بذاتِها إلى ثُعبانٍ عظيمٍ ظاهرٍ لكلِّ من نظرَ إليهِ وليس سحرًا، وسمّي ثُعبانًا من ثعبَ الماء إذا أساله فجرى ملتويًا على الأرض، وَوَعَدَهُ بشيءٍ مُبينٍ يُظهرُ حجّته فجاءهُ بثُعبانٍ مُبينٍ ظاهرٍ؛ فتكريرُ اللّفظِ جناسٌ حيثُ اتّحد اللّفظ واختلف المعنى ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا

هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ وأخرجَ يدهُ من جيبِه الصّدريّ فإذا بها تظهرُ بيضاء ناصعةً لكلّ من نظرَ إليها، و أفادت "إذا" سرعةً في تحوّلِ لونِ يدِه على مرأى من عيُونهم، وأظهر لهم خصوص الآيتين لعلاقتهما بأصولِ فنّ السّحرِ الذي شاع عندهم، ولعلّهُ زاد آيةً ثانيةً إثباتًا لحقيقةِ الأولى إذ شأنُ ما يحدث صدفةً أن لا يتكرّر، وفي القصّةِ محذوفٌ علم من المقامِ أي: ثمّ رجع الثّعبانُ إلى العصا وعادت اليدُ إلى حالِها.

وكان فرعون يُشاهدُ ذلك فحكم على الموقِف مخاطبًا حاشيته بقوله: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ إنّ موسى هذا لرجلٌ خبيرٌ بفنونِ السّحر، وعمد إلى تأكيدِ كلامه حملاً لهم على أن يُصدّقُوه في كونِه قد خبرَ حالهُ جيّدًا، وصيغةُ "عليمٌ" للمبالغةِ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ يُريدُ بسحرِه هذا أن ينتزعَ سلطتَكم فيكون ذلك سببًا لانتهاء عزّتِكم في أرضِ مصرَ وقد تضطرُّون بعدها للخُروجِ منها، وهذا من قبيلِ التّهويلِ بأمرٍ بعيدِ الحصولِ تنفيرًا لهم من موسى عليه السلام ودعوته، وقريبٌ من هذا الكلام نُسبَ إلى السّحرةِ في سورةِ الأعراف؛ والجمعُ بينهما أنّ فرعون سبقَ القوم في قولها؛ لأن الحديث معه أصالة، فتلقفها قومه منه فقالوها؛ ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فبماذا تقترحون عليَّ؟ اضطرَّ إلى صناعةِ قرارٍ مستعجلٍ في شأن موسى عليه السلام فطأطأَ رأس الاستبدادِ طالبًا توجيهًا من أعوانِه لعلّهُ يجدُ سبيلاً لصدِّ قومه من تصديقِ حججِه ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أخّر الفصل في قضيّته مع أخيهِ؛ وكلّف من يذهبُ إلى مدُنِ مملكتِك ليجمعَ لك أمثاله من السّحرةِ، والإرجاء التّأخير، ومن تأمّل في ثنايا القصّةِ وجد كثيرًا ممّا يُبطل زعم فرعون للألوهيّةِ ومنها هنا: اضطرابُه في شأن موسى واستشارته مَن دُونه ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ كلّفهم بأن يأتُوك بخبراءِ السّحرِ، وصيغةُ "سحّار" للنّسبِ الصّناعيّ مثل: حدّاد؛ وصيغةُ "عليم" للمبالغةِ، وتأجيلُ الفصلِ في النّوازل وإعطاءُ فرصةٍ لاستجماعِ الأمرِ لها دهاءٌ سياسيٌّ غير أنّ النّتيجةَ كانت خائبةً إذ صنعت لفرعون الطّبق الذي لا يشتهيه.

وبقرارٍ حُكوميّ نُفّذ الأمرُ ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ فبرمج مع السّحرةِ المنتخبينَ لقاءٌ محدّدٌ بيومٍ معلومٍ لدى النّاسِ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٦٥]، وفاءُ التّعقيب أفاد سرعةً في تنفيذِ القرارِ، وأصلُ الميقات آلةُ تحديد الوقتِ سمّي بها ذات الوقت مجازًا،

ولامُه الجارّة بمعنى: عند ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ ثمَّ أعلن للشعبِ رسميًّا بالمقابلةِ العلنيّةِ في اليومِ المحدّدِ، وأخفى مَن نادى النّاس هنا لأنّ من قواعِد القصصِ القرآنيّ عدم ذكرِ مَن لا تظهرُ حاجةٌ إلى ذكرِه، والاستفهامُ للتّرغيبِ الحثيث وكأنّهم توانوا عن الاجتماع فنُودوا بهذا، وهنا لطيفةٌ فقد أُرسل موسى عليه السلام ابتداءً إلى فرعون ثمَّ تكفّل فرعون بذاتِه بجمعِ النّاس له من أبعدِ الأقطارِ لاعتناقِ رسالة التّوحيدِ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ احضُروا لعلّنا إن غلبَ السّحرةُ موسى نقرّرُ رسميًّا اتّباعهم فيما يرسُمونه من خُطّةٍ لإبطالِ ما يجيء به، والمراد: لا يفوتُكم الاجتماع فتخسرُوا معرفةَ ما يجبُ أن يُعرفَ في حينِه، أو الاتّباعُ في الآيةِ مستعارٌ للتّأييدِ والمناصرة لأنّ من شأنِ المناصر أن يتتبّع مناصرهُ في كلّ دقيقةٍ وكبيرةٍ.

ثمّ يُفصّل في مجريات المقابلةِ التي جرت بين موسى عليه السلام والسّحرةِ ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ وحينَ قدم السّحرةُ إلى فرعون وجرى بينهم ما جرى من الحوارِ؛ سأل السّحرةُ فرعون سؤالَ مَن يقرّرُ على غيرِه وعدًا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ هل سيكونُ لنا مقابلٌ ماديٌّ إن غلبنا موسى؟ واحتاجُوا إلى تأكيدِ كلامِهم استنزالاً لفضلِ فرعون، وتضمّن سؤالُهم هذا استخبارًا عن مدى احتياجِ فرعون إليهم، كما عكس حقيقةَ السّحرةِ فهم من لا يسعى لشيءٍ أبعد من مطمعٍ نفسيٍّ ربحيٍّ، وطاوعوا بكلامهم هذا كلام أنصارِهم أو شكُّوا في الرّبح لَمّا سمعُوا عن ثُعبانِ موسى عليه السلام ويدِه البيضاء. أجابهم فرعون: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ نعم لكم ما تُريدونه وإضافةً إلى ذلك ستكونون من خاصّتي، وأكّد كلامه إثباتًا لوعدِه، ويظهرُ أنّه أراد ابتداءً من ظهورِ موسى عليه السلام أن يُنشئ وزارةً للسّحرةِ تنفعُه في مثلِ هذهِ المواقفِ، و"إذًا" هي "إذا" الشّرطيّة نوّنت عوضًا عن جملةِ الشّرطِ والتّقديرُ: إذا غلبتُم موسى.

ويطلُب منهم موسى عليه السلام بأن يستفتحوا المقابلة بعد أن طلبُوه: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ قدّموا ما أردتُم تقديمه، والتّعبيرُ بالعمومِ استخفافٌ بما سيلقُونه، والظّاهرُ أنّهم عبّرُوا بمصطلحِ الإلقاء يدويًّا على الحقيقةِ إذ عرف افتتاحُ السّحرِ بذلك، ولم يتقدم موسى السحرة في الإلقاء تحقيقًا لما سيأتي به من الحقّ وتنبئةً لهم بأنّه لا يؤثّرُ سحرُهم فيه؛ وليس فيه أمرٌ بالمعصيةِ ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا

لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فرموا من غيرِ انتظارٍ حبالاً وعصيًّا كانت لديهم حالفين بعزّةِ فرعون: سنكونُ نحنُ الغالبين بكلِّ تأكيدٍ، ولم يقُولوا: بعزّتِكَ؛ إظهارًا لكونهم معظّمين لفرعون على كُلِّ حالٍ، وقيل: الباء للتّيمّنِ مثل "بسم الله" لأنّ مجيئهم كلّهُ من أجله، وجزموا بالغلبةِ تخويفًا لموسى بروحهم الإيجابيّة وحملاً لجماهيرِ المناصرينَ إلى التّشجيعِ فنُجومُ المقابلاتِ الكبرى ترتفع معنوياتهم بأعدادِ جماهيرِهم وقوّةِ تأييدِهم ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ وجاء دورُ موسى عليه السلام فألقى عصاهُ الواحدة فما إن ألقاها حتّى تحوّلت ثعبانًا وراحت تبتلعُ كلَّ حبالهم وعصيّهم، واللّقفُ سرعة تناولِ ما يرمى؛ استعير هنا للإمساكِ السّريعِ مع البلعِ، والإفك الكذبُ الفظيع وجعل الابتلاع لما كذبُوهُ مبالغةً ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ وما إن رأى السّحرةُ ذلك المشهد أيقنوا أنّه ليس من قبيلِ السّحرِ لخبرتهم بفنونِه فخرُّوا مذعنينَ للحقِّ، والسّجودُ هنا سجود حقيقي ظاهر و افقَ سجودنا أو لم يُو افقهُ، وقد سجدُوا قائلين ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ صدّقنا تصديقًا جازمًا بربِّ العالمين الرّبّ الذي يدعو إليه موسى وهارُون؛ زادُوا ذلك احترازًا من توجيهِ الرّبوبيّةِ إلى فرعون لأنّه يدّعيها، ولعلّهم قبل المبارزةِ أخذوا المعلُوماتِ الكافية عن خصمِهم -على ما قد تتضمّنُ من المغالطاتِ- حتّى إذا وقعت الحجّةُ أمام أعيُنهم اعتدلت فطرتُهم واستقامت بصيرتهم فاعتنقُوا الحقَّ.

حمل فرعونُ على السّحرةِ مستنكرًا وموبّخًا: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ هل آمنتم بربِّ موسى وهارُون قبل أن أسمحَ لكم بذلك و أنا من ينبغي ألاّ تتصرّفُوا إلاَّ بإذنه؟! وفي هذا تصويرُ غاية ما تبلُغه أوهام الحكّامِ المستبدّينَ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ إنّ موسى هذا لهو المحترفُ الكبير الذي درّبكم على فنّ السّحر، أورد هذهِ الشّبهة و أكّدها تغريرًا بالعامّةِ بأنّ السّحرة لم يُؤمنوا عن يقينٍ و إنّما هي مؤامرةٌ جرت بينهم من حيثُ لا يدري للانقلابِ عليهِ؛ لكن أنّى لها أن تحصُل! ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فسوف ترون عن قريبٍ ما سيحدُث بكم، واللاّم في "لسوفَ" للقسمِ، وهذا كلامُ تهديدٍ وتوعّدٍ لهم لعلّهم إليهِ يرجعُون، وهو وإن ظهر تضييقًا لحُرّيةِ المعتقدِ لكنّ وراءهُ سدّا لمنافذِ الانفلاتِ السّياسيّ لأنّ لهم شأنًا تُخشى عاقبتُه، وبيّن مبهم العقاب بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ الجملةُ مقدّرةٌ بقسمٍ بشيءٍ عظيمٍ لدى فرعون نحو: وعزّتي لأفصلنَّ لكم جميعًا أيديكم وأرجُلكم عن أجسادِكم من خلافٍ؛ وفي التّعبيرِ إيجازٌ أي: يقطعُ يمنى اليدِ مع يُسرى الرّجل أو العكس؛

وفيهِ نكايةٌ عظيمةٌ بهم إذا صلبُوا ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ و إنّي بعد التّعذيبِ سأصلبُكم لتبقوا عبرةً لغيرِكم، والصّلبُ ربطُ الميّتِ على خشبةٍ، ونسب الأمر إلى نفسه مجازًا لأنّ القراربيدِه و إنّما هو لوزارته العقابيّة، وأكّد الجملتينِ وضعّف الفعلينِ تحقيقًا للعقابِ وتهويلاً منه. وردَّ السّحرةُ على تخويفِ فرعونَ بقولِهم: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ لا يضرُّنا ما تُخوّفنا به فإنّا بعد التّقطيعِ والموتِ راجعون إلى مَن سيلطُف بنا، والضّيرُ مرادفُ الضّرِ، ونفيُه كلّيّةً مستعملٌ في تحقيرِه كعبارةِ: ليس بشيءٍ؛ لأنّ وجوده صاركعدمِه لَمّا أفضى إلى النّعيم الأبديّ، وفي هذا ابتلاءٌ عظيمٌ للسّحرةِ نجحُوا فيهِ؛ طمعُوا في الأجروالزّلفى فوجدُوا في نهايةِ المطافِ الموت والصّلب فرضوا بذلك ابتغاءَ أجرٍ أبقى وزُلفى أفضل ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ إنّا نرجو من إيماننا العازمِ الذي لا رجعةَ فيهِ أن يغفرالله لنا جميع ذنوبنا، ولم يقطعُوا بالمغفرةِ تأدّبًا مع الله، وفي الآيةِ لفتةٌ إلى أنّه كان الدّخول في دينِ موسى عليه السلام جبًّا لما قبله، ولفتةٌ إلى أنّ السّحرة عرفُوا قدرالله فلم يتمنّوا عفوهُ على حسابِ الانتقالِ إليهِ بالمعاصي ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ "أن" مصدريّةٌ بمعنى: لأجلِ كوننا أوّل مَن آمن بهِ؛ وتلك كنايةٌ عن سرعتِهم في الاستجابةِ بدليلِ أنّهم توسّلُوا بها إلى المغفرةِ التي إنّما تحصُل بصدقِ إقبالِ العبدِ على ربّه؛ ولأنّ مَن آمن ثانيًا بعدهم لا يفوتُه نيلُ ما نالُوهُ، والظّاهر أنّ العقوبة جرت فيهم، وما دام القرآنُ لم يُصرّح بها فإن العلم بوقوعها من عدمه يبقى لله.

### د- خروج موسى عليه السلام بمن صدّقه ونهايةُ فرعون وحزبه

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)﴾.

ثمّ يأتي إلى إنجاءِ موسى عليه السلام وأصحابه وإغراقِ فرعون لَمّا استنفدت معه الفرص والحجج؛ فبينَ ما سبقَ وهذا فاصلٌ زمنيٌّ معتبرٌ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ وأمرنا موسى عليه السلام بأن يسيرليلاً مصطحبًا أتباعه الصّالحين إلى جهةِ البحرِ الأحمرِ مُعلِمًا إيّاهُ بأنّ فرعون وملأه سيتبعون وراءَكم لردّكم والكيدِ لكم، و"أنْ" تفسيريّةٌ، و"أَسْرِ" أمرٌ بالسّرى وهو السّيرُ ليلاً ومنه الإسراء، وسمّى أتباع موسى عبادًا وأضافهم إلى نفسه تشريفًا، وأنبأهُم بأنّهم متّبعُون إنباءً مؤكّدًا حثًّا لهم على المسارعةِ بالخرُوج، وهنا محذوفٌ أي: فأسرى موسى وبلغَ خبرهُ إلى فرعون ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ وفعلاً استعدّ لاتّباعِه فبعث إلى مُدنِ مملكتِه لجمع النّاس، وغرضُهم حسب ظاهرِ نصوص القصّةِ في القرآن إبلاغُ خطابٍ رئاسيٍّ سيذكُرُه؛ وقيل: جمعُ مددٍ حربيٍّ، وعلى الرّأي الثّاني الذي عليهِ عموم المفسّرين الأمر سيستغرقُ وقتًا لعظمِ مدنِ مصرَ ولأنّه لا يتبادرُ الفرار إلى جهةِ البحرِ؛ فالظّاهرُ قد عرف اتّجاههم وبادرَ إلى اللّحاقِ بهم بمن معه من الجندِ والحاشرُون قد حرّضُوا خلفه من في المدنِ ليلحق بهذه البرقيّةِ التي تلخّصت فيما يلي: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ إنّ موسى و أتباعه لجماعةٌ قليلةُ العددِ عديمةُ النّفوذِ، و"شرذمةٌ" في وصفِ النّاس الجماعةُ القليلةُ وجمعُها شراذم، وميّزَهم بالإشارةِ واختارَها للقريب للتّحقيرِ على أنّهم حاضرُون في الأذهان لشيوعِ أمرِهم، و أثبتَ قلّتَهم بلفظِ "شرذمةً"، واحترزَ من توهّمِ تقليلِ شأنِ الجماعةِ الكبيرةِ بزيادةِ "قليلُون" لتأكيدِ أنّهم قلّةٌ حقيقةً ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ وإنّهم قد أهاجُوا غضبَنا بتركِ ديننا ومخالفةِ أمرنا وسنّ طريقِ الخرُوجِ عنّا بغيرِ إذننا، وضميرُ التّكلّمِ للعظمةِ، وغائظون جمعُ غائظٍ وهو الذي اشتدَّ غضبُه ﴿وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ و إنّه من شأننا جميعًا أن نكون شديدي الحذرِ على مملكتنا، وعند ورشٍ "حذِرُون" جمعُ حذرٍ وهو صيغةُ مبالغةٍ، والأسلوب مستعملٌ في الحثِّ على الاقتداءِ بهِ في الحذرِ مع التّنويهِ بشأنه في أداءِ واجبه الرّئاسيّ، كما يحتملُ مدحَ من جاءهُ بخبرِ موسى بحثِّ الجميعِ أن يكونوا بهذا المستوى من اليقظةِ، وسلكَ طريقَ الإيجازِ و أكّد كلامه في المقاطِع الثّلاثة تمريرًا للخطابِ السّياسيّ.

وهكذا يأخُذهم الله إلى نهايتِهم المشؤومة ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ فاستدرجناهُم للخُروجِ من بساتينِهم الغنّاء وعيونهم الجارية وأموالِهم العظيمة وقصورِهم الفارهة، والآيةُ جمعت مقوّماتِ الدّولةِ الغنيّةِ المترفة التي ستُحسُّ بمفارقةِ ما هيّأته وألفتهُ، و"مقام" محلُّ

الإقامةِ أو مصدرُ قام؛ أفرده لإرادةِ الجنس، ووصفُهُ بالكريمِ اكتسبهُ من مظاهرِ التّرفِ الثّلاثةِ قبله ﴿كَذَلِكَ﴾ على ذلك النّحوِ كان الإخراج؛ والمراد: فاعتبرُوا بمن متّعناهُم حتّى جاءهم ما كانُوا يُوعدُون ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وقد أردنا أن نعطي ما نزعناهُ منهم لبني إسرائيل جزاء صبرِهم، وعبّر باصطلاحِ التّوريثِ لأنّه إعطاءٌ وهبيٌّ محضٌ، وعلى هذا يكونون رجعُوا إلى مصرَ بعد الإنجاءِ من البحرِ لمدّةٍ بعضهُم أو كلّهُم.[١٥] وهذا مؤخّرٌ وقوعًا قدّم ذكرهُ اهتمامًا بهِ ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ فتبعَ فرعون وجنده موسى عليه السلام متّجهينَ نحو جهةِ الشّرقِ؛ وهو أنسبُ لجهةِ البحرِ الأحمر ولمدّةِ الاتّباعِ المعتبرة؛ ويُقالُ: أشرقَ إذا اتّجهَ شرقًا، أو يُقدّر فتبعُوهم فأدركوهم صباحًا مع شرُوق الشّمس وهو أوفقُ بالتّرائي الآتي، و أتبعَ بمعنى تبعَ ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ وحين ظهرَ الفريقانِ لبعضِهما من بعيدٍ، و"تراءى" تفاعلٌ فيكونُ حدثَ من الطّرفينِ ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ قال أتباعُ موسى عليه السلام والبحرُ أمامهم: لا مفرّ لنا قد لحقُوا بنا، قيل: هذا تألّم طبيعيٌّ طمعًا في إيجادِ حلٍّ؛ ويظهرُ أنّهُ نوعٌ من خيبةِ الظّنّ التي لا تنبغي عند المتيقّنِ من النّصرِ وإن قضى الله بإهلاكِه لأنّها ظنونٌ تخلقُ الارتباكَ وتمزّقَ الصّف؛ ولأجلِ ذلك بادر إلى إبطالِها عليه السلام قائلاً: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ إنّ معي مَن أومنُ بلُطفِه وسيأخذُ بي إلى طريقِ النّجاةِ، و أفرد الكلام لنفسِه تأديبًا لهم على ظنّهم السّيّئ؛ و إيماءً لهم بأنّه سينجُو بأمرٍ خارقٍ يجري على يديه؛ ولأنّ نجاته نجاةٌ لهم، وقدّم "معي" للاهتمامِ محقّقًا تربيةً لهم بأنّ الله معي أوّلا وبالذّاتِ وإن أجمعتُم على الهلاك، وفي جوابِه جماعُ مفاتيحِ الخلاصِ؛ من اليقين المستفاد من "إنّ" و"سيهديني"، واعتقاد معيّةِ الرّبّ وقربِ استجابتِه في ضيقِ الموقفِ، واستنزال لُطفِه بذكرِه الرّب ونسبِه إلى نفسِه ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ حِينها أوحينا إلى موسى عليه السلام بأن يضرب ماء البحرِ بعصاهُ،[١٦] والله قادرٌ على أن يجري المعجزاتِ بلا سببٍ يُذكرُ و إنّما أراد أن يُعلّمنا إيجاد الفعل ولو كان هيّنًا فإنّ العبرةَ بالحركةِ لا بالنّتيجةِ، وهنا حذفٌ أي: فضربَ،

---

[١٥] ونفى ابنُ عاشُور صحّة هذا حيثُ يرى بأنّه مخالفٌ لقوله: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدّخان: ٢٨]، ولما اشتهرَ تاريخيًّا بأنّهم بقوا في الشّام، وأوردَ تأويلاتٍ للآية أعلاه، منها: أنّهم أورثُوا أجناس تلك الأشياء في أرضهم الجديدةِ. ينظر، التحرير والتنوير، ج: ١٩، ص: ١٣٣.

والفاء في "فأوحينا" دليل السرعة؛ وهذا واضح لأن الموقف لا يحتمل تأخيرا، وهي أيضا دليلٌ على أن الوحي إلى موسى بضرب البحر كان في ذلك الوقت؛ لأن الفاء تقتضي التعقيب، وهو أنسبُ بالإعجاز، وقيل: قد أوحي إليهِ قبل ذلك بناءً على قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ [طه: ٧٧] ويُؤوّلُ هذا بأنّ الوحي كان مرّتينِ أي احتاجَ بعدَ الأمرِ العامّ إلى وحيٍ تفصيليّ، لأن موقف المواجهة موقف شديد يحتاج فيه إلى تأكيد الأمر، و أيضا قد يكون الوحي الثاني لبيان وقت الضرب، أي اضرب الآن. ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ وهنالك انشقَّ البحرُ شقّينِ و انفتح في عُرضِه طريقٌ يابسٌ عن جانبيهِ جدارانِ عظيمانِ من الماء كأنّهما جبلانِ، كنّى بذلك عن العمقِ الحاصلِ، والمسافةُ المقطوعة قد عُلمت بمعرفةِ البحرِ الأحمر فالمسيرُ فيه طويلٌ، والفِرقُ الجزءُ المفرُوق، والطّودُ مثل الطّور الجبل العظيم ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ واستدرجنا إلى ذلك الطّريقِ اليابسِ وسط البحرِ جيش فرعون، و"أزلف" أي قرّب، و"ثَمّ" بمثلّثةٍ مفتوحةٍ بمعنى: هنالكَ، والآخَرينَ جمعُ آخَر وقد عُلم أنّهم حزب فرعون، ولم يحبسهم ما يرونه لأوّل مرّةٍ لأنّ الله أراد إهلاكهم؛ ولأنّ للحربِ أحوالها الخاصّة؛ ولاعتقادِهم السّلامة كما سلم قوم موسى عليه السلام ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ وكتبنا النّجاة لموسى عليه السلام ومن معهُ جميعًا إلى جانبِ البحر الآخرِ، وذكرُ المعيّةِ تنويهٌ ببركةِ صحبتِه عليه السلام ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ ثمّ أغرقنا فرعون ومن معهُ بإطباقِ البحرِ عليهم لَمّا خرج منه آخرُ قومِ موسى عليه السلام ونزله آخر جيش فرعون؛ وهذا مستفادٌ من "أجمعين" و"أزلفَنا ثمَّ"، واستعمالُ ضمير العظمةِ في المواضع الثّلاث تنبيهٌ لعظمِ الحوادث ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ إنّ في مجموعِ تلك القصّةِ لآيةً عظيمةً دلّت على قدرةِ الله وصدقِ موسى عليه السلام فيما جاءَ بهِ لمن يريد الإيمان؛ وتضمّن هذا تهديدًا لكلّ مخالفٍ لنهجِ الله، والتّأكيدُ وإشارة البعدِ وتنكيرُ "آيةً" للتّنويهِ بشأنِ القصّةِ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وما كان أكثرُ قومِ فرعون في علمِ الله مؤمنينَ فلذلك لم تنفعهم دعوةُ رسُولهم، وفي هذا تسليةٌ له ﷺ حيثُ كان أتباعُه في مكّةَ مع كلّ جهدِه لم يتجاوزوا أربعين مؤمنًا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإنّ ربّك يا مُحمّد ﷺ لهو العظيم في مُلكه الرّحيم بخلقِه، وهذهِ القصّةُ الأولى من مجموعِ سبعِ قصصٍ كلّ منها قد اشتمل على فاتحةٍ وخاتمةٍ وقضيّةٍ موحّدة كأنّها سورٌ مستقلّةٌ؛ كرّرت بهذا النّمطِ لأنّ الأدلّة غير العقليّة من طبيعتِها أن يعتريها الشّكّ فإذا تكرّرت على مبادئ واحدةٍ تقرّرت

مؤذنةً بسنّةِ الله التي جرت مع جميعِ الرّسلِ و أقوامِهم؛ لتستيقن هذه الأمّةُ أنّها ليست بدعًا منهم في شيءٍ إلاّ في الاختلافِ الزّمانيّ.

## ٢- قصّةُ إبراهيم عليه السلام مع أبيهِ وقومه وثناؤُه الحسن على الله

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾.

ثمّ يأتي إلى قصّةِ الخليل عليه السلام التي تحكي واقع قومٍ اشتبهت حياتُهم كثيرًا بمشركي مكّة؛ وقد ناسبت بذلك أن تكون مع أوائل القصصِ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ و اقصص على قومك أيّها الرّسُول ﷺ خبر رسُولنا إبراهيم عليه السلام، وفي ذكر قصّتِه تسليةٌ له ﷺ بأنّه قد أعرض عنهُ قومه و أقربُ النّاسِ إليهِ كما أعرضوا عنكَ، وفي الأمرِ بالإنباءِ وبطريقِ التّلاوةِ مزيدُ اهتمامٍ بالقصّةِ لأنّ قومه يتشرّفُون بالانتساب إلى إبراهيم ولتضمّنِ قصّتِه كلامًا له عليه السلام، ومن عُموم قصّته يخصُّ موقفًا من مواقفه الكثيرة بالإشارة: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ حين حدّث أباهُ آزر وقومه سائلاً إيّاهم سؤال مستفتحٍ للحوارِ: ما هذهِ الآلهةُ التي تعبُدونها؟ واستعمل المضارع ليلفت انتباههم إلى أمرٍ دأبُوا عليهِ؛ أو خاطبَهم وهم مع العبادة، وسواءٌ خاطبَ أباهُ مفردًا أو مع قومه فتخصيصُهُ بالذّكرِ مع أنّه من القومِ إشارة إلى اهتمامه بمن له حقٌّ عليهِ، ولم ينكر عليهم بعدُ لأنّه في مقامِ إقامةِ الحجّةِ وإعفاءِ المخاطبِ ليجودَ بما يعتقد؛ فإذا فسّر فعله بنفسه تبيّنَ له خطؤهُ أكثر ممّا لو بُيّن له. أجابوهُ: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ نعبُد ما ترى من الأصنام بالبقاءِ عندها متوسّلين، وتنوينُ "أصنامًا" للتّعظيم، وأصلُ "ظلّ" أن يُستعمل فيما يستمرُّ نهارًا؛ فدلّ على أنّهم أحبُّوها إذ وهبُوا لها أعزّ أوقاتِهم،

وجدّدُوا ذكر العبادةِ وزادُوا الظّلول والاعتكاف إظهارًا لابتهاجِهم بعبادتِها سفاهةً كالفرِح بما يُذمّ عليه، وهكذا حين سمعهم الخليل عليه السلام استطاع أن يبني حجّتهُ على بُطلانِ آلهتِهم معجزًا إيّاهم عن الجوابِ ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ هل تسمعُ هذه الأصنام دُعاءكم حين تتوسّلُون إليها؟ والآيةُ بتقدير مضافٍ أي: يسمعون دُعاءكم، وقد يُفسّرُ السّماع بحاصِلِه وهي الاستجابة، واستعمل الواووهي ضميرٌ للعُقلاء فقال: يسمعونكم ولم يقل: يسمعنكم؛ مجاراةً لهم إذ يظنّونها بمنزلة العقلاء ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ وهل تقدّمُ لكم نفعًا أو تملكُ لكم ضرًّا جلبًا أو دفعًا؟ والاستفهام للتّبكيت والتّعجيز، وحذفَ المفعُول في الفاصلتينِ للعلمِ بهِ أي: تدعُونهم ويضرُونكم. أجاب القومُ بما يدلُّ على تعطيلِهم لعقولِهم والاكتفاءِ بالتّقليد: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لا شأنَ لنا في الجوابِ عمّا تستنكرُ؛ وغايةُ ما في الأمرِ أنّا وجدنا أسلافنا يعبُدون الأصنام فعبدناها، وفحوى المعنى: وجدنا آباءنا يفعلُون فعلاً كذلك الفعل، وقدّم "كذلك" للاهتمام، وفي الحقيقةِ المعرضُ عن الإجابةِ عمّا يسهُل تقريرُه قد أجاب بلسانِ حالِه وإن كانت مطرقة تعطيل العقلِ تمنعُه من التّصريحِ.

أطبق إبراهيمُ عليه السلام الجدال معهُم مقابلاً افتخارهم بآلهتِهم بالاعتزازِ بحرّيّةِ عقلِه وسلامةِ فكرِه قائلاً: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ﴾ هل تأمّلتُم فعلمتُم، وتفسيرُ الرُّؤيةِ بالقلبيّةِ أقرب، ونحو هذا التّركيبِ الاستفهاميّ يردُ للفتِ الانتباهِ لغرضٍ مهمٍّ ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ ما عبدتُموهُ من الأصنام أنتُم وأسلافُكم الغابرون؟ واستعمال الكونِ الماضي فيه زيادةُ إثباتٍ للفعلِ، وفي جمعهم مع آبائهم إمعانٌ في تشنيعِ آلهتهم باعتبارِها ضلالاً عمَّ القدماء والمعاصرينَ، وفي ذكر الأقدميّة إبطالٌ لأن يكون تقادُم الشّيء سببًا لثبُوتِ أحقّيّتِه على حسابِ مو افقةِ المنطِق والعقل ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنّهم جميعًا كالعدوّ لي لا أتقرّبُ إليهم إلاّ ربّ العالمين فهو وليّي في الدّنيا والآخرةِ، والآية على طريقِ التّشبيهِ البليغ لأنّ الأصنام ممّا لا يعقلُ فلا يتصوّرُ معاداتُها، و أفرد "عدوّ" لأنّه يلزمُ الإفراد والتّذكير في عموم الأحوال، وكلامه المؤكّدُ هذا بـ"إنهم" من قبيل بيانِ ما يُحبّ المرءُ لنفسه ترغيبًا للنّظر والاقتداءِ، والظّاهرُ أنّ آباءهم لم يعبُدوا الله فيكون الاستثناءُ منقطعًا؛ تقديره: ولكن أعبد أو أوالي رب العالمين، أراد به بأنّه ترفّع عن معبُوداتِهم ليعبد ربّها وربّ كلّ شيءٍ.

وعلى نحوِ ما بيّن موسى عليه السلام لفرعون السّائل: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشّعراء: ٢٣] يُبيّنُ إبراهيم عليه السلام لقومه فضل ربّه على الإنسان متحدّثًا عن نفسِه؛ وذلك عبر كلّ أطوارِ النّشأةِ الجسميّةِ والنّفسيّةِ بأمورٍ تظهرُ لكلّ أحدٍ إغراءً لهم على عبادتِه ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ذاك الذي أنشأني أوّل مرّةٍ على أحسنِ إنشاءٍ؛ فهو بذلك أجدر بأن يراعي لي الطريق الأصلح لمعاشي ومعادي، وتقديمُ "هو" لإفادةِ الحصرِ؛ وقد أوردَه فيما يُظنُّ أنّ لغيرِ الله فيه حظّا، والمضارعُ في هذه الأفعال لإفادةِ التّجدّد؛ فهما فضلان: الإنعام والاستمرارُ فيه، وهنا تعريضٌ بأنّ أصنامهم لم تخلُقهم ولم تُرِهم طريق الهدايةِ ولا تملكُ شيئًا ممّا سيذكُرُه، ومن الهدايةِ إلهامُ الإنسانِ إلى الأكلِ النّافع ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ وهو وحدهُ من وفّر لي لذيذ ما آكُل وطيّب ما أشرَبُ كلّما احتجتُ، والإشارةُ إلى هذا إشارةٌ إلى تأمّلِ طريقة تكوّنِ الغذاء كلّها، ونسبَ الفعل لله مبالغةً في جعلِ كلّ الفضلِ له حتّى قوة رفع الطّعام والشّراب إلى الفمِ، وقدّم الإطعام حفاظًا على تناسُقِ الفاصلةِ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وإذا تعرّضتُ لأيّ مرضٍ فالله وحدهُ مَن سيَشفيني؛ واعتقادُ وجود الشّفاء للمرضِ نصفُ الشّفاء، واستعمل "إذا" تنبيهًا إلى أنّ بساط العافيةِ عليهِ أوسع؛ واعتقاد أنّ المرض ظرفٌ طارئ تخفيفٌ من حدّتِه، ولم يستعمل "والذي" هذه المرة، فقد ذكر هذا بعد الأكلِ والشّربِ تلميحًا إلى أنّ مدار الصّحّةِ والمرضِ بهما، والمقامُ لذكرِ الإنعام فنسب المرض إلى نفسه والشّفاء إلى الله تأدّبًا معه؛ على أنّ المرض ليس كلُّه نقمةً؛ وإن كان يجبُ الاعتقادُ بأنّ الله هو من يخلُقه على كلّ حالٍ ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ المضارعُ هنا لبيانِ الشّأنِ المستمرّ؛ فهو الذي بيدِه الحياةُ متى شاء أنهاها بالمرضِ أو غيرِه وبيدهِ النّفوس بعد الموتِ متى شاء أعادَها، والموتُ نعمةٌ باعتبارِ العاقبةِ الحسنةِ بعدهُ، ورتّب هذهِ الأمور هكذا ليخلُص أيضًا إلى التّذكيرِ بحقيقةِ البعثِ والجزاء فإنّ من قدرَ على الخلقِ الأوّل فسيقوى على الإعادةِ، ومن أنعمَ وابتلى فلا بُدَّ سيُحاسِب، وحذف ياء التّكلّمِ في المواضع الأربعةِ تخفيفًا وتجويدًا للفواصل وقد كان أغلبُها في السّورةِ بالنّون[١٧] ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ وهو الذي أرجو منهُ وحدهُ أن لا يريني زلّاتي في يومِ الجزاء، وأفرد الخطيئة لإرادةِ الجنس، و"الدّين" هنا مِن دانه

[١٧] ولعلّ في تحسين الفواصل مع افتتاح السّورةِ بالحرُوف المقطّعةِ وورودِ آياتها على مقاطِع صغيرة ثمّ انقسامها إلى فصولٍ متشابهةٍ وفي موضوع القصصِ بالذّاتِ تحدٍّ خاصٌّ للذين تسمّتِ السّورةُ بلقبِهم بأن يأتُوا بكلامٍ يبلغ درجة القرآنِ نظمًا وإعجازًا.

إذا جازاه بما فعل؛ وعلّقَ المغفرة بيومه لظهورِ أثرها فيه، وعبّر عليه السلام بالطّمعِ مع مقامِ خلّتِه؛ ثمّ زاد "لي" اعترافًا بحاجته إلى المغفرةِ تأدّبًا مع الله؛ وما سيّئاتُ الأنبياء بشيءٍ يُوزن؛ وفيه استنهاضٌ لمواتِ عقُول قومه ليذّكّرُوا وهم من فرّطوا في جنبِ الله، واستقلالُ كلِّ مقطعٍ بالاسمِ الموصولِ اهتمامٌ بما دلّ عليهِ من الأوصافِ الإلهيّةِ التي استحقَّ بكلِّ واحدةٍ منها أن يُعبد وحدهُ، وبصلاحِ هذا الخبر أن يستعمل في الدّعاء حسُن التّخلّص إلى ما بعدهُ.

ثمّ يذكُر الله عن خليله من قبيلِ التّربية على الدّعاء بعد الفراغ من العبادة جملةً من أدعيتِه بعد ما كان من دعوةِ قومه ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ يا ربِّ امنح لي حكمةً عظيمةً،[18] وهذا سؤالُ زيادةٍ لأنّ الكمال لا حدَّ لهُ، ومن أدبِ الدّعاءِ تصديرُه بلفظِ الرّبوبيّة أو الألوهيّةِ؛ والملاحظ أنَّه في القرآن مصدَّر بالرُّبوبية فقط، والحُكم مذكّرُ الحكمةِ وتنكيرُه للتّفخيم؛ وهو عقلُ الأمورِ وإجراؤُها في مواضِعها، و افتتح دعاءه بهذا لينبّه كلّ داعيةٍ بترتيبِ أولويّاتِه في الدُّعاء ليستشعر مقامه الذي يحتاجُ فيهِ إلى قدرٍ من المعرفةِ بنفسيّاتِ المدعوّينَ وأحوالِهم ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وألحقني بدرجةِ الصّالحين أولي العلمِ والعملِ وهذا أنسبُ بما سبقَ، أو ألحقني بمنزلتهم الأخرويّة فيكون من بابِ طلبِ البقاء على الوفاء وحُسنِ الخاتمةِ وهذا يُناسبُ ما سيأتي ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ واجعل لي ذكرًا حسنًا فيمن يأتي بعدي، وخصَّ الآخِرين مجازًا لأنّهم لنسيانِه أقربُ، وقيل: أراد هذهِ الأمّة، وعبّر باللّسانِ مجازًا عن الذّكرِ لأنّهُ آلتُه؛ واستعمل الصّدق كنايةً عن الشّيء المستحسن، وحقّق المبالغة فيه بإضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه وبالتّعبير بالمصدرِ "لسان صدق"، ولم يطلُب مجرّد الذّكرِ احترازًا من أن يُحمد بما لم يفعل، وخصّه لنفسِه تأكيدًا ومناسبةً لليوم الذي لا ينفعُه إلاّ زادهُ، ولم يرد المدح بالذّاتِ و إنّما أراد الاستزادة من الخير تغذيةً للرّوحِ في العمرِ الثّاني حين تستمرّ آثارُه ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ واجعلني ممّن ينالُ فضلكَ بدخولِ الجنّةِ ذات الخيرِ الكثير، و"النّعيم" الرّغدُ والدّعةُ، ومن قيمِ الخليل عليه السلام هنا عدم الاغترارِ بإيمانه؛ فقد استشرفَ أنّ للجنّةِ أخيارًا سبقُوهُ فسألَ أن يكون منهم، وعبّر باصطلاحِ الإرثِ تقريرًا بأنّه ليس في العاملين من يدخل الجنّةَ إلاّ بالفضلِ الإلهيّ المحض، ودُعاء الأئمّةِ لأنفُسهم في الجماعةِ من بابِ التزامهم بواجبِ السّبقِ إلى الإيمان كما مرّ في شأنِ

[18] ويُستبعدُ تفسيرُه بالنّبوءةِ -كما درج بعضٌ- لأنّها لا تُسأل.

سحرةِ فرعون ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ واغفر لأبي آزر خطيئاتِه فقد كان من أهلِ الضّلال الصّريح، وفي اهتمامه بأبيهِ المشركِ عرفانٌ بمن له حقٌّ عليه وإن خالفهُ ديانةً، وظاهرُ آياتِ القرآن في الموضوع أنّه سأل هذا و أبُوهُ حيٌّ، ويزولُ الإشكال إن أُوّل سؤالُه بطلبِ الهدايةِ؛ وذكرُ ضلالِه مؤكّدًا يُؤيّدُ ذلك، وإن أبقي على ظاهره؛ كما هو الأصل، ولأن الله نهى نبيه محمدا عن الاقتداء بإبراهيم في هذا الاستغفار، إن أبقي على ظاهره فيقال: إن إبراهيم سأل ذلك قبل أن يعلم أنّه شقيٌّ وقبل أن يُنهى؛ لأنّ في طلب المغفرةِ للمكابرِ ومن عُلمت شقاوتُه سوء أدبٍ مع الله وخليلُ الله منزّهٌ عنه؛ وهو على كُلٍّ سؤالٌ جائزٌ عقلاً وقد أجيب سيدنا إبراهيم في دعواته إلا دعاءه في شأن أبيه ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا تهنّي يوم يُبعث النّاسُ للحسابِ بسببِ تفريطٍ ما ووفّقني لأن أموت على الوفاء، وفي هذا ما يعكسُ شدّةَ خوفِه عليه السلام على مكانته من مفاجأةِ عدمِ القبُولِ في الآخرة؛ وهي من علاماتِ الكمالِ في الإخلاص، وجاز أن يكون سألَ ألاَّ يُخزى في شأن أبيه بعد أن اجتهد في دعوته ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ يوم لا تنفعُ الأموال للنجاة ولو كانت بملء الأرضِ ذهبًا ولا ينفعُ الأبناء للنّصرةِ والافتداء وإن كانُوا بررةً؛ وغيرُ هذينِ من بابِ أولى كأنّهُ قال: لا مالٌ ولا بنون ولا شيءٌ آخر سينفعُ؛ و إنّما أتى بما يُرتجى عند الشّدّةِ؛ وخصَّ البنوّةَ لأنّها أدعى للنّصرة، وتضمّن هذا اعترافًا بأنّه عليه السلام على قدرِه ليس له من حيلةٍ لإنجاءِ أبيهِ، وهذا من كلام إبراهيم ويجوز أن يكون لله؛ فيكون الوصفُ الآتي على طريقِ مدحه نحو: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصّافّات: ٨٤] ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ إلاّ من جاء إلى ربّه بقلبٍ سلمَ من كُلِّ سوءٍ، والسّليم وصفٌ لقوّةِ السّلامة، ولا تختصُّ الآية بجانبِ الطّهارةِ الأخلاقيّة فقط و إنّما جاءت لتقرّر مبدأَ الفوزِ الذي فازَبه إبراهيم عليه السلام مثالا لنموذجٍ رائعٍ لأنّ منطلقهُ كان من سلامةِ المضغةِ المحرّكةِ وهي القلب، فمن سلم محرّكُه سيكون صاحب همّةٍ صادقةٍ صحيحةٍ في العملِ، ومن اعترت قلبه قساوةٌ أو مرضٌ بالشّركِ أو النّفاقِ سوف لن يكون له وزنٌ مهما عملَ لفسادِ منطلقِه.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾.

ثمّ يبيّنُ الله مصيرَ الفريقين استطرادًا بمناسبةِ حكايةِ دعوةِ إبراهيم عليه السلام لقومه المنتهيةِ بذكرِ الإتيانِ إلى لقاءِ الله، وقيل: الكلامُ متتابعٌ لإبراهيم ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقُرّبت الجنّةُ لأهلِ التّقوى كي يدخُلوها، وأوجز في التّرغيب وأطنب في الوعيدِ لأنّ أغلب قوم إبراهيم عليه السلام كانوا مكابرين، وأزلفَ بمعنى قرّبَ، والتّقريبُ مجازٌ عن طيّ الوقتِ والتّعجيلِ بهم إليها؛ أو هو تقريبٌ حقيقيٌّ –والله مقتدرٌ- تعجيلاً بالمسرّةِ كما يُظهرُ النّار للغاوين فيرونَها تعجيلاً بالعذابِ ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ وأُظهرت النّار لأهلِ الضّلالِ وحدهم، والغاوي فاعلٌ بمعنى مفعولٌ أي من وقعت عليهِ الغواية، وضعّفَ الفعل مبالغةً في التّخويفِ؛ فالغرضُ هو إرهابُهم بها قبل دُخولها كما قال: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النّازعات: ٣٦] و"الجحيم" اسمٌ لنارِ الآخرةِ من جحمتِ النّارُ جُحومًا إذا اشتدَّ التهابُها، وأخفى الفاعل في هذهِ المواضع لأنّه معلوم وهو الله لأنّهُ هو المجازي والمحاسب، والتّعبيرُ بالماضي في هذهِ الأفعال لإفادةِ تحقّقِ وقُوعها وكأنّها حدثت ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وسئل المشركون في يوم القيامة سؤال توبيخٍ وتبكيتٍ موجّها لهم: أين معبُوداتُكم التي اجتهدتُم في عبادتِها تاركين بها عبادةَ الله الواحد؟ وليس السّؤال للبحثِ عن ذاتِها ومكانِها وإنّما عن أثرِ نفعِها؛ فهو احتقارٌ لشأنِها كي يعلم كلُّ مشركٍ أنّ عاقبتها خسارةٌ محضةٌ، وفي استعمالِ "كنتُم" مع "تعبُدون" المضارع تحريكٌ لأذهانِهم كي يستحضرُوا الفعل الذّميم فتصدُق فيهم المذمّة ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ هل سينفعُكم اليوم ما عبدتُم لإنقاذِكم من الجحيم الذي رأيتُموه، أوسيستطيعُون دفع عذابٍ وجبَ عليهم، ولم يحكِ جوابَ الأشقياء لأنّ المقام مقام تبكيتِهم وإثبات عدم نفعِ آلهتهم ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ فأُلقوا جميعًا في النّار، وكبكب مضاعف كبَّ إذا قلبَ على وجهه؛ جُعل التّكرير في اللّفظِ مناسبةً

للتّكريرِ في المعنى فالشّقيُّ ينقلبُ في النّارِ مرّةً بعد أخرى حتّى ينتهي إلى دركتِه، والجماداتُ والمعبُودات التي لم ترضَ بأن تُعبدَ مستثناةٌ من اللّومِ والعذابِ بدلالةِ الاقتضاء، وقيل: تُكبُّ أصنامُهم معهم رمزًا لإبطالِها لقولِه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ قال كثيرٌ من المفسّرين: "هم" عائدةٌ إلى معبُوداتِهم؛ والغاوون فاعلٌ بمعنى مفعُولٌ أي الذين وقعت عليهم الغواية، والظّاهرُ أنّ "هم" للضّالّين، والغاوون للمُضلِينَ غيرهُم؛ ويُناسبُه: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصّافّات: ٣٢] ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ وذكر جنودَ إبليس بالمناسبةِ تلويحًا برأسِ الإضلالِ وكلِّ من اتّبعهُ في مهمّتِه من الجنِّ والإنسِ، وهم مندرجُون تحتَ مسمّى "الغاوون" مصداقًا لقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وسمّوا بالجنودِ لأنّ سُلطانه عليهم يقتضي منهم طاعةَ الجنديِّ لسيّدِه في إغواء النّاسِ ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ قال الضُّعفاء التّابعون من أهلِ النّارِ لمن أضلّهم وهم في وسط النّارِ على حالٍ فظيعةٍ من التّعارُك، وأطنب في بيانِ أحوالِهم تهويلاً من عذابِهم، وذكر الاختصام ليُثبت أنّ المودّةَ التي جمعتهُم في الدّنيا على ردِّ الحقِّ مودّةٌ زائفةٌ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ تالله إنّا كنّا في ضلالٍ صريحٍ، والحلفُ باستعمالِ "تالله" يكثُر ورودُه فيما يبعثُ على العجبِ والاستغرابِ أي: كيف ضللنا كلّ هذا الضّلال! و"إن" توكيديّةٌ مخفّفةٌ من الثّقيلةِ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حينَ جعلناكم في مقام الله ربِّ العالمين، والتّسويةُ مستعملةٌ مجازًا في استحقاقِهم أقلّ قدرٍ من العبادةِ؛ والاعتبار بذلك القليل وإن كان بعضهم ساوى المعبودات فأعطاها من الحقوق والتعبد مالا يُعطى إلا لله، بل بعضهم فضلها على الله، وعبّرُوا بالمضارع لاستحضارِ الحالِ الفظيع، ومن هدايةِ الآية نتعلّمُ أنّه: يجب جعلُ أمرِ الله فوقَ كلِّ أمرٍ على أيِّ حالٍ، وتجدُّد لفظ "ربّ العالمين" عبر كلِّ قصصِ السّورةِ مؤذنٌ بأنّه العنوان الذي اتّفقت عليهِ الرّسُل فهو الشّامل للثّناء المانع من ظنون الشّرك ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يُبعدنا عن الهدى إلاّ أهلُ الإجرامِ الحقيقيّون، والخطابُ للضّالّين بعضهُم لبعضٍ على سبيلِ التّحسّرِ والنّدم، والمجرمون هم الغاوون الذين أضلُّوهم، ولم يقولوا: إلاّ أنتُم وذكروهم بالإجرام ليقرّرُوا بأنّ الإضلال كان جريمةً في حقّهم؛ وهذا ضربٌ من الاختصامِ معهم ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ وليس لنا اليوم من أحدٍ يتوسّطُ بينَنا وبين الله لينقذنَا، ولا صديق مخلص ينفعُنا بإغاثةٍ أو

نصرة، والحميم الوفيّ من حَمّ له إذا دنا و اقترب منه؛ وحامّةُ الرّجلِ أقرباؤُه، وفي هذا تنبيهٌ إلى أنّ الله أهملهُم حقًّا وهم في الجحيم؛ وتنبيهٌ إلى منهجِهم الدّنيويّ الفاسد فقد كانُوا يعتقدون بأنّ جاههم وعزّهُم هو كلُّ شيءٍ، وقد ذكر قطب الأئمة أنه جمع الشافع فقال"شافعين" لكثرة الشافعين، و أفرد الصديق"صديق" لقلته وقد جاءا مفردينِ معًا في: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:٣٨]، ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويا ليتهُ كانت لنا عودةٌ إلى الدّنيا لنكون من أهلِ الإيمان الحقيقيّين، والتّعبيرُ بالكونِ في المؤمنينَ أبلغُ في التّأكيدِ، و"لو" حرف شرطٍ سلبَ معنى الشّرطيّةِ فخلُص للتّمنّي؛ وأصلُ النّظمِ: لو كان لنا كرّةٌ للإيمانِ لآمنّا، والكرّةُ مرّةٌ من الكرّ وهو الرُّجوع لإعادةِ المرّةِ الفائتة، وفي هذا عبرةٌ لنا كي ننهضَ بما تمنّوهُ قبل أن نتمنّاه ولا نجدَه، ولمّا علم الله في الأزلِ أنّهم لا يُؤمنون قال عنهم وكرّرَوهم أحياءً: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إنّ في كلّ ما سبقَ من قصّةِ إبراهيم عليه السلام مع قومه وما مرّ من بيانِ مصيرِ السّعداءِ والأشقياء لدلالة عظيمة على أنّ الله هو المعبُودُ بحقٍّ والمتصرّفُ في خلقِه، ولكنّهُ لم يكن أكثر قومك في علمِ الله مؤمنين فلذلك لم يُصدّقُوا؛ والمرادُ: فالخلل فيهم وليس في سُطوعِ الحجّةِ، ويجوزُ عودُ الضّمير إلى قومِ إبراهيم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإنّ ربّكَ لهو أهلُ العزّةِ كلّها وهو الواسعُ في رحمتِه.

### ٣- قصّةُ نوحٍ عليه السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥)﴾.

وبعد قصّةِ موسى و إبراهيم -عليهما السّلام- يأتي إلى قصّة نوحٍ عليه السلام مسلّيًا بكلّها رسُوله مُحمّدًا ﷺ ممّا يجدُه من قومه ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ رفض قومُ نوحٍ دعوةَ رسُولهم نوح عليه السلام، و أنّث الفعل"كذبت" بتأويلِ جماعةٍ أو أمّةٍ، لأنّ كلّ اسم جمعٍ للعقلاء لا مفرد له من لفظه يجوز فيه التّذكير والتّأنيث، وعبّر عن الواحد بالجمعِ"المرسلين" تعظيمًا، أو جعل تكذيبهم لنوحٍ تكذيبًا لكلّ الرّسل

لوحدةِ رسالتِهم؛ وقد كانُوا يرفضُون أن تكون الرّسالة في بشرٍ مثلِهم، ونفسُ هذه الحكايةِ ستتجدّدُ مع عاد وثمود وقوم لُوطٍ وأصحاب الأيكةِ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ كذّبُوا نوحًا عليه السلام حين قال لهم: ألا تخافُون الله فتعملُوا بأمرِه وتجتنبُوا نهيهُ؟ ودعوة نوحٍ وصايا حاصلُها الدّعوةُ إلى تقوى الله ولم تقتصر على تلك العبارةِ، والأخوّةُ نسبيّةٌ أو إنسانيّةٌ؛ وفي ذكرِها تشنيعٌ لهم إذ ردُّوا مَن مِن شأنه أن يقبلوهُ، و"ألا" تحضيضٌ على التّقوى؛ أو هي استفهامٌ مع "لا" النّافيةِ للإنكارِ عليهم كيف يترُكون التّقوى! ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليلٌ للحثِّ على التّقوى أي أؤكّد لكم بأنّي لأجلِكم أرسلتُ و أنا أمينٌ فيما أحملُ، أو قد عرفتُموني أمينًا من قبل فكيفَ ظننتُم بأنّي تركتُ الكذب معكم وكذبت على الله!؛ وهذا أوفقُ بتسلية مُحمّدٍ ﷺ، وتضمّن هذا اعترافًا من نوحٍ عليه السلام بأنّ المدعوّله الحقّ أن يشكَّ ابتداءً حتّى يتثبّت؛ لكن عليهِ أن يبادرَ إلى الاستجابةِ إذا تيقّن من صحّةِ المرسُول؛ فلذلك جاء بالفاءِ بعدها مؤكّدًا الأمر بالتّقوى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وجئتُكم بأصلينِ: عليكم بخشيةِ الله وطاعة رسوله فيما يُوجّهكم به عنه، وبدأَ بالتّقوى تقريرًا بأنّ طاعةَ الرّسُولِ ليست إلاّ فرعًا عن طاعةِ الله المحفّزةِ عليها ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ولا أطلُب منكم على القيامِ بالدّعوةِ مقابلاً ماديًّا أيّا كانت طبيعتُه شأنَ محبّي المكانةِ والمتطلّعين للجاهِ، و"من" صلةٌ للتّأكيدِ، وتنكيرُ"أجرٍ" في سياقِ النّفيِ أفاد العموم، وهذا كافٍ للبيانِ وزاد عليهِ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولا أحتسبُ ثوابَ عملي إلاّ على ربِّ العالمين الغنيِّ الكريمِ، واغتنمَ بهذا تذكيرَهم بطبيعةِ العملِ الإيمانيِّ الخيريّ بأنّ جزاءهُ أخرويٌّ؛ فيكونُ ذكّرهُم بالآخرةِ كذلك ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ جدّد هذا الأمر تأكيدًا ولبناءِ معنى جديدٍ أي: إذا تبيّن لكم أنّي على حقٍّ فعليكم بالطّاعةِ؛ فكيف و أنا لا أطلبُ منكم أجرًا!

ردَّ ساداتُ قوم نوحٍ على رسُولهم بما يُشعرُ بأنّهم عرفُوا الحقَّ وصدّهُم عنه الكِبْر: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ كيف نُصدّقُ بما تُنادي إليهِ والحالُ أنّه قد كانت من زُمرة أتباعِك آخرُ طبقاتِ النّاسِ؟ و"الأرذلُون" تفضيلٌ في وصفِ الرّذالةِ وهي الخسّةُ والحقارة، والاستفهام للإنكارِ أي: لا نُؤمنُ. فبادرَ نوحٌ عليه السلام بالرّدِ عليهم بأسلوبٍ حكيمٍ قائلاً: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ "ما" استفهاميّةٌ، والآيةُ بتقديرِ مضافٍ أي: وما فائدةُ علمي؟ وعملُ قومه أراد بهِ عموم أحوالِهم الماضية التي أكسبتهُم وصف الرّذالةِ في نظرِهم، فالاستفهامُ مستعملٌ في إبداءِ عدمِ الاهتمام بالمستفهمِ عنه وكأنّهُ قال: الله

أعلمُ بحالِهم ولا شأن لي فيهِ، ووجهُ الحكمةِ في جوابِه عليه السلام أنّه جمع بينَ إبطالِ اعتراضِهم والتّنبيهِ إلى أنّ معيارَ الرّذالةِ بالأعمالِ لا بالجاهِ؛ وهو جوابٌ يقطعُ الجدال أكثر ممّا لو ناقشهُم في صفةِ الرّذالةِ، ولمّا كان هذا مربكًا لتفكيرِهم عاجلَهم بتفويضِ أمرهم إلى الله ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ ليس أمرُهم إلاَّ على الله وحدهُ، بمعنى: لماذَا تشتغلُون بهم وحسابُ العبادِ لا يكُون إلاّ على الله، ولمّا كان استيعابُهم لهذا مستبعدا لأنّهم غير مؤمنينَ زادَ ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لو تدركون، ويحسُن جعلُ "لو" شرطيّة والتقديرُ :لو تشعرون لَما تفوّهتُم بذلك، وتضمّن استرذالُهم للمؤمنين دعوةً إلى إبعادِهم لذلك أجاب عليه نوحٌ عليه السلام ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ واعلموا أنّي لستُ بمبعدٍ أحدًا من الذين ترونهم أراذلَ مهما طلبتُم، والباء صلةٌ للتّأكيدِ، ووصفهُم بالإيمان ليبيّنَ علّة تقريبِهم منه ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وليس هدفي الإكثار من الأتباع لأرضيكم فلستُ إلاَّ منذرًا عنِ الله ومبلّغًا عنه، ومن نورِ هذه الآيةِ نفهمُ أنّ البراءةَ الفطريّة والسّلامة الفكريّة سببٌ لقبولِ الحقّ وما ردَّ سادات القومِ عنِ الحقّ إلاَّ ألبسة الغرورِ و أقنعة المادّة.

### هلاكُ قومِ نوحٍ بعد تهديدِهم لنبيّهم ورفعِ شكواهُ إلى ربّه

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)﴾.

لَمّا تمكّن نوحٌ عليه السلام من مصارحةِ قومه وضاق حالُهم به عمدُوا إلى أسلوبِ التّهديد قائلينَ له: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ إذا لم تتوقّف يا نوحُ عمّا تُنادي إليهِ لنُبعدنّك عنّا، والظّاهرُ هذا فهو كناية عن الإبعاد على الشّائع في عُرف النّاسِ إذا أرادُوا طردًا بالتّعنيفِ كما كان الشّأنُ مع الرّسُولِ ﷺ حين ذهبَ إلى الطّائفِ، وقيل: الرّجمُ على حقيقته من ضبطِ شخصٍ في موضعٍ ورميه بالحجارةِ إلى الموتِ، و أكّدُوا تهديدهم مبالغةً في التّخويفِ و إيماءً بأنّ كيله قد طفح، ولم يقولوا: لنرجمنّك لأنّ التّعبير بكونِه ممّن يرجم أبلغُ تحقيقًا في رجمه.

اشتكى نوحٌ عليه السلام إلى ربّه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ يا ربِّ إنّي أدّيتُ ما عليَّ ولم أجد من أغلبِ قومي إلاَّ الرّفض والتّعنيف، والله عالمٌ بحالِ نبيّه وإنّما نحنُ متعبّدُون بالتّضرّعِ إليه، واستعمل هذا الخبر وأكّدهُ إنشاءً للتّحسّرِ الشّديدِ وتمهيدًا للدّعاءِ عليهم ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ فاقضِ بيني وبين قومي أمرًا حتّى لا يتمكّنُوا من تنفيذِ تهديدِهم فينا، فطلبُ نوحٍ عليه السلام ليس طلبًا للاستقالةِ من مهمّتِه وإنهائها بل هو طلبُ توفيرِ حصانةٍ، وطلبَ الفتحَ دون الحُكم مجازًا لأنّه نتيجةُ القضاءِ الذي تنفتحُ بهِ مغاليقُ الأمور، وأكّدهُ بالمفعولِ المطلقِ"فتحا" تنبيهًا على أنّهُ الحُكم النّهائيّ فلذلك طلبَ التّنجية بعدهُ ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأنجني أنا ومن معي من أهل الإيمان ممّا ستُصيبُهم به، وخصَّ نفسهُ بالدّعاءِ لأنّه حامل الرّسالة ثمَّ ذكر المؤمنينَ معهُ تلويحًا بأنّ المؤمن الحقّ من كانت سيرتُه وفق خُطى الرّسُول، ويحكي الله تنجيته واستجابتهُ لدعائهِ مُظهرًا منّتهُ على عبادِه ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ فنجّينا نوحًا عليه السلام والذين آمنوا معهُ في السّفينةِ العظيمةِ المملوءةِ بهم وبغيرهم من كلِّ زوجينِ اثنينِ، وذكرُ شحنِ السّفينةِ تنويهٌ بعظمةِ القدرةِ في الإنجاء لأنّ زيادة الحمولةِ مظنّةٌ للغرقِ، ولعلّ في هذا ما تضمّن إعجازًا بأنّ الماء لديهِ قابليّة حملِ سفنٍ بمقدارِ مدنٍ بأكملها كما نرى عماليقِ السّفنِ اليوم ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ ثمّ تركنا البقيّة الكافرةَ تغرقُ بالمياهِ الطّوفانيّة، والباقون الكافرُون من أمّتِه خاصة، فالظّاهرُ أنّ طوفان نوحٍ لم يعمَّ وجهَ الأرض كلّها، و"ثم" رُتبيّةٌ،والتقدير:والأعظم من ذلك إغراق الباقين الكافرين، فإنّ إغراق أمّةٍ بأكملِها أعظمُ من إنجاءِ أفرادٍ، أو هي للتّراخي الزّمانيّ باعتبارِ أنّ أوّل ركوبِ الفلك إنجاءٌ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ إنّ في إنجاءِ نوحٍ عليه السلام وإغراقِ قومِه لعبرةً جليّةً لمن يريدُ الإيمان، ولم يكن أكثر قومه مؤمنين، وإنّ ربّك يا مُحمّد ﷺ عزيزٌ لا يفتقرُ لأحدٍ رحيمٌ بمن استحقَّ الرّحمة، وفي تكريرِ آياتِ الوعظِ مزيدُ قطعٍ للحجّةِ على مَن سمعها.

### ٤-قصّةُ هودٍ عليه السلام مع قومه عاد

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾.

وبعد قصّةِ موسى و إبراهيم ونوح -عليهم السّلام- يأتي إلى القصّةِ الرّابعةِ قصّةِ هودٍ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ رفضت قبيلةُ "عادٍ" دعوةَ رُسلِ الله؛ ولعلّ تكذيبَهم وقع بالأخصّ لمن جاء قبلهم؛ وقد كان من دأب الرّسلِ أن يذكّرُوا أقوامهم بهم؛ ومن قول هودٍ عليه السلام لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وعادٌ اسمُ قبيلةِ هودٍ عليه السلام نسبةً إلى أبيهم الأكبر كما هو شأنُ كثيرٍ من القبائل والشّعوبِ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جدّد نفس مطلعِ قصّةِ نوح عليه السلام ونفس الأصولِ الدّعويّة ليبيّن وحدةَ الرّسلِ فيما جاؤُوا به؛ فهي حُجّةٌ على صدقِهم وداعيةٌ إلى اتّباعِهم، ومن صفاتِ الرّسُل المستخلصةِ منها: التّبليغ والأمانة وعدم الطّمع في الحظوظ الدّنيويّة على حسابِ الدّعوة.

وقد عُرف عادٌ بافتخارِهم بالقوّةِ التي صرفتهم عن هدفِ خلقِهم فجاء تحذيرُ هودٍ عليه السلام لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ كيف سمحتُم لأنفُسكم بالاشتغالِ بمظاهرِ التّفاخُرِ والكبرياء؟ والاستفهامُ توبيخيٌّ إنكاريٌّ والرّيع ما ارتفع من الأرض وناسبَ للإشرافِ على غيرِه، و"كلّ" مستعملٌ في الكثرةِ، و"آيةُ" قصد بها العلامةُ، وأراد بها البناء الذي يدلُّ على براعةِ منشئهِ، وعبثُهم مفسّرٌبتصرُّفهم بغيرِهدفٍ، والظّاهرُأنّهُ عاب عليهم حالينِ عرفت بهما الدّول والحضارات الرّاقية وهما: إضاعة العمرِ والأموال في بناءِ ما لا غرضَ وراءهُ، والاهتمام بالتّطوّرِ المدنيّ دون الالتفاتِ إلى الدّين ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ المصانع المباني العظيمة، وأهل الأثرِعلى رأيينِ: أنّها منشآتٌ أرضيّةٌ لتخزينِ الماء؛ أو هي القصور العالية؛ والمخالفةُ بين البناءِ والاتّخاذِ تفنّنٌ في العبارة، و"لعلّ" للتّشبيهِ تعجّبًا منهم أي: تتّخذون قصُورًا عظيمةً كأنّكم تخلُدون لا تموتُون؛ أوهي للتّعليل والكلامُ توبيخٌ معطوفٌ على سابقِه يعني: وتنجزون مبانيَ عظيمةً كي تخلُدوا! أوهي للتّرجّي على طريقِ التّهكّمِ بمعنى: اتّخذُوا مصانع يرجون الخلود فيها، وهذان مظهرانِ مبهرانِ قابلهما بمظهرٍسيّئ يكشفُ عن الأثرِالوخيمِ للقيمِ المدنيّةِ التي لم تنضبط بالقيمِ الدّينيّة ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ وإذا تعرّضتُم لغيرِكم تصرّفتُم بالعدوان والجبرُوت، والبطشُ إظهارُالقوّةِ ولا يلزمُ منه الظّلم وفي القرآن: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾

[الأعراف: ١٩٥] وكرّر الفعل ليحسُن البناء عليهِ وليحصل اهتمامٌ بمدلُوله، والخلاصة ذمّهم على السّيرِ بلا هدفٍ في هذهِ الحياةِ وتفريغِ العمرِ لها ونسيان الموت وعلى نتيجة ذلك من عدمِ التّورّع عن محارِم الله؛ ولَمّا كانُوا بذلك في غايةِ الانحرافِ أوصاهُم تأكيدًا لما سبقَ بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وزاد هنا معنى: واحذرُوا من بطش الذي سيُحاسبُكم ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ وأطيعوا رسُوله فيما يدعُوكم إليه، وتلك خشيةٌ ارتبطت بتهديدٍ قابلها بخشيةٍ مرتبطةٍ بتذكيرٍ لطيفٍ بنعمِ الله ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ وخافُوا الله الذي تفضّل عليكم بما تعرفونه من النّعم الكثيرةِ، والإمدادُ إعطاءٌ بلا انقطاعٍ، والخوفُ من المنعِم معناهُ الحذرُ من تخطّي الحدودِ التي سطّرَها في استغلالِ ما أنعمَ به، وهنا نوعٌ من الإجمالِ والإبهام أوردهُ عنوانًا تشويقيًّا ثمّ فصّلهُ وبيّنهُ في قولِه: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ تفضّل عليكم بصنوفِ الأنعامِ المختلفة التي منها أكلُكم وركوبكم؛ وبالبنين الذين تستأنسُون بهم ويخلُفونكم؛ وبأنواعٍ من البساتين البهيّةِ والعيونِ الجاريةِ، ولعلّهُ ذكّرهم بأنّ وسائل إنشاء حضارتهم من دوابٍّ وأيادٍ بشريّةٍ وما ساعدَ على ذلك من الجمالِ الطّبيعيّ بأنّها من اللهِ لعلّهم يشكرونه، وتكريرُ لفظي "اتّقُوا وأمدّكم" وقع للفصلِ الحاصلِ ليحسُن البناء عليه وتضمّن مع ذلك اهتمامًا بهما وتأكيدًا لمدلولهما ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وصّيتُكم بالتّقوى لأنّي أخشى عليكم عذاب الآخرةِ العظيم إن كفرتُم بنعم الله الجليّةِ فيكم؛ وبالمقابل سيرجو السّلامة لهم إن شكرُوا نعم الله، والعذابُ أخرويٌّ ويجوزُ تفسيرُه بالدّنيويّ مناسبةً لما يأتي.

## إصرارُ قومِ هودٍ عليه السلام على الكُفرِ واستئصالُهم

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)﴾.

ولَمّا ألحّ هودٌ عليه السلام على قومه أيأسُوه من إيمانهم قائلين: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ وعظتنا يا هود أو سكت عن الوعظِ الأمر سواءٌ عندنا؛ ولم يقُولوا: أم لم تعظ تجويدًا للفاصلةِ؛ وليُنزلُوا غايةَ اجتهادِه في الوعظِ على نحوِ كلّ الرّسلِ منزلةَ انتفاء كونه من أهلِ الوعظ كلّيّة؛ وتلك مبالغةٌ منهم في تسويةِ حالِ السّكوتِ بحالِ الوعظِ ترغيبًا له فيما يظهرُ أنّه الأخفّ وهو السّكوت

كي يسكُت، وحين لم يهمّهم شيءٌ من كلامِه فهمنا أنّهم سمّوهُ وعظًا على سبيلِ الاستهزاءِ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ "إن" نافيةٌ بمعنى ليس، والإشارةُ تعليلٌ لما حملهُم على رفضِ الوعظِ وهو طريقُ آبائهم، والخُلُق هنا السّجيّةُ والعادةُ؛ بمعنى: لسنا إلاّ على عادةِ أسلافنا السّابقين في رفضِ دعوتِك كما قيل عنهم: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١]، أو بتفسيرِ هذا الذي جئتَ به من حكاياتِ السّابقين؛ نحو: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النّمل: ٦٨] وبلغةٍ معاصرةٍ قالوا: لم تأتِ بجديدٍ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ولا نعتقدُ أنّه سيلحقُنا العذاب العظيم الذي تتوعّدُنا بهِ إطلاقًا ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وهكذا ردُّوا دعوةَ هودٍ عليه السلام بعد كلِّ اجتهادِه في وعظِهم، وهذهِ الفاءُ تُسمّى "الفصيحة" حيثُ أفصحت عن نتيجةِ ردِّهم للوعظِ ونفيِ العذابِ عن أنفُسهم بأنّهُ تكذيبٌ، والفاءُ التّاليةُ للتّعقيبِ بيّنت أنّ الهلاك لم يكن بعيدًا عن تكذيبِهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ فأخذناهم بالرّيح العاتية كما قال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقّة: ٦]، وحين عرف القومُ بالشّدّةِ استأصلهم بجنسِ ما عرفُوا بهِ كي يكونَ أظهر في القدرةِ و أبينَ في العبرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ إنّ في إهلاكِ عادٍ على قوّتِهم لمظهرًا معبّرًا عن قدرةِ الله، ولم يكن أكثرُهم مؤمنينَ بالله، وإنّ إلهكَ يا مُحمّد ﷺ أهل العزّةِ المطلقةِ والرّحمةِ الواسعةِ بهم لو آمنوا.

### ٥-قصّةُ صالح عليه السلام مع قومه ثمود

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾.

وهذهِ القصّةُ الخامسة لصالحٍ عليه السلام بعد قصّةِ موسى و إبراهيم ونوحٍ وهودٍ -عليهم السلام- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وكذّبُوا بالأخصّ من سبقَهم فقد ذكّرهم رسُولهم بقومِ هودٍ عليه السلام في: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نفسُ المطلعِ والأصولِ

الدّعويةِ تجدّدَ في مطلعِ هذهِ القصصِ ليُؤذن بوحدةِ الرّسالاتِ السّماويّةِ وذلك داعٍ لتصديقِها واتّباعها، ومن تلك الأصولِ التّذكيرُ بالموتِ والبعثِ؛ وقد اشتهرت عادٌ في مجالِ العمرانِ فذكّرهُم رسُولهم من خلالِه ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشّعراء: ١٢٩]، وأمّا صالحٌ عليه السلام فقد ذكّر قومه من خلالِ جمالِ طبيعتِهم وقوّةِ أبدانِهم فقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ أتحسبُون أنّكم ستعيشُون في هذهِ الحياةِ طويلاً مطمئنّينَ على استمرارِها لكم؟ والاستفهامُ للنّفي والإنكارِ أي: لا يكونُ ذلك أبدًا، و"في ما هاهنا" إيجازٌ رائقٌ جمع كلّ أحوالِ أرضِهم وزمانِهم، والأمانُ أمانٌ من سقُوط كيانِهم وموتِ أفرادِهم، وهذهِ أزمةُ الدّولِ والجماعاتِ عامّةً إذا استقامت لها الحياةُ فترةً انخدعت ولم تتوقّع أنّها ستنتكسُ يومًا ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ في بساتين جميلةٍ وعيونٍ سيّالةٍ وأنواعٍ من الزّروعِ وجودةٍ من النّخلِ، ذكرَ الزّرع بكثرةِ الأنواعِ الذي أفادهُ تنكيرُ "زروعٍ"؛ وذكر النّخل بالجودةِ تفريقًا وتفنّنًا، كما أنّه جمع بين ما يُرى أرضًا "زروع" وما ترتفعُ لهُ الأنظارُ "نخل"؛ وكلّ ذلك داخلٌ في عموم الجنّاتِ وخصّهُ بالذّكرِ اهتمامًا به، والطّلع مشتقٌّ من الطّلوع؛ وهو بداية العرجونِ بغلافه الأخضر الذي يُسمّى: الكُفُرّى قبل أن ينفتحَ ويُلقّح، والهضيم صيغةُ مبالغة في وصفِ المهضومِ؛ وتلك كنايةٌ عن كونِه سيصيرُ تمرًا جيّدًا، والذي يصيرُ تمرًا هو ثمرُه اللّطيف وليس الطّلع، وإنماعبّر عنه بالطّلع مجازًا[١٩] ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ وتحدثُون في صلبِ الجبالِ بيوتًا لسكنِكم، والنّحتُ تصويرُ شكلٍ في جسمٍ صلب، والمضارع لاستحضارِ الحالة البديعة، و"مِن" لمعنى الظّرفيّةِ المكانيّةِ بمعنى في، وجمع البيوت للدّلالةِ على إنشائهم بيوتًا كثيرةً، و"فارهين" حالٌ من الفراهة وهي المهارة والحذق؛ وبلُغةِ العصرِ خبراء متخصّصين في نحتها، وقيل: كانوا يتّخذون من الجبالِ بيوتًا بطرًا بلا حاجةٍ حالُهم حال عادٍ حين بنوا في كلّ ريعٍ آيةً يعبثُون، وقيل: لأنّ أعمارهم طويلةٌ والبيوت العادية تبلى قبلهم، والأظهرُ أنّهم لمّا علموا أنّ عادًا هلكوا بالرّيح نحتُوا في الجبالِ بيوتًا لتحميهم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أعادهُ تأكيدًا ولتحقيقِ معنى: فخافُوا الله الذي أنعم عليكم بما أنعم، وأطيعُوا رسُوله فيما يأمرُكم به عنه ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ الإسرافُ في حقّ الله مجاوزةُ حدودِه؛ ولا يظهرُ من

---

[١٩] ولعلّ كلّ مواضع ذكر النّخل في القرآن أريد بها النّخل الإناث، وأمّا الذّكر منها فيُقال له: فحلٌ وفُحّال ويُجمعُ على (فحاحيل) وذلك طلعه خشن غليظ، وطلع الإناثِ مرادِفُه الكمُّ –بكسرِ الكافِ أو ضمّها– ويُجمعُ على أكمام وفي القرآن: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن ١١].

السّياقِ أنّه أراد بهِ معنى غير هذا؛ والمراد: ولا تطيعُوا أولئك المجاوزين لحدودِ الله، وأسند الطّاعة إلى الأمر مجازًا، والمفسّرُون على أن المراد بالأخصّ الكبراء والسّادة، وعليهِ فهو نهيٌ صريحٌ عن طاعة المسؤولين الجورة، وقيل: هم التّسعةُ المذكرون في قصّةِ صالحٍ عليه السلام في: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]، ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ومن سماتهم أنّهم عرفُوا بالفسادِ المتزايد؛ فقوله: "لا يُصلحون" مرتبةٌ على غلوّهم بحيثُ لم يُعهد منهم إصلاحٌ لما أحدثُوهُ من فسادٍ، أو هو تأكيدٌ لتوغّلِهم في الإفسادِ بنفيِ الضدِّ نحو: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩] وهو أقوى من صيغةِ القصرِ "أولئك هم المفسدون" لاحتمالها معنى المبالغة، وقد حصل بذاك طباقٌ رشيقٌ، وذكر الأرض زيادةً في تقريرِ فسادِهم فيما جعل مهدًا للحياةِ والاستثمارِ.

## تكذيبُ ثمود لرسُولهم وبيانُ نهايةِ أمرِهم مع آية خرُوج النّاقةِ

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)﴾.

ردَّ ثمود على رسُولِهم صالح عليه السلام قائلين ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ لا نراكَ بأقوالك إلاَّ مصابًا بالسّحرِ، ولم يقُولوا: أنتَ مسحُورٌ ولا أنت من المسحُورين مبالغةً في ادّعاءِ تمكّنِ السّحر منه، والمجادلة بطريقِ إطلاقِ هذهِ الأحكام العامّةِ فيه نوعٌ من المجازفة الظّاهرة لعدمِ تحمّلِ جهد تحرّي الصّواب، وتلك أحوالُ الأمم المتخلّفةِ ترى كلّ نمطٍ من التّفكيرِ خرج عن طبيعتِها ضربًا من الاختلالِ العقليّ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ولا نراكَ إلاَّ كواحدٍ منّا قد يعتريك من النّقصِ ما يعترينا فكيف أصبحتَ تدّعي الرّسالة؟ اهتمّوا بالمثليّةِ في الخِلقةِ وغفلُوا عن الأفضليّةِ في الأخلاقِ التي هيّأته لتأييدِ الله وحملِ الرّسالةِ، وقد ناقضُوا أنفُسهم حينَ أجازُوا مجادلة المسحورِ وطلب المعجزاتِ منه ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأظهر لنا علامةً تدلُّ على أنّك من أهلِ الصّدقِ الحقيقيّين، والأمر محمولٌ على التّعجيزِ والاستهزاءِ فهم ليسُوا طالبين دليل استيقانٍ، واستعملُوا "إن" الدّالةَ على الشّكِّ إمعانًا في تكذيبِه.

فأجاب صالحٌ عليه السلام قومه بإذنِ الله فأخرج لهم ناقةً؛ والقرآنُ لم يذكر طريقَة خروجِها ولا مكانه وذكر ما فيهِ العبرةُ مباشرةً وهو الابتلاءُ بها ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ الآيةُ التي طلبتُم هي هذه النّاقة، والله يأمُركم أن تدعُوها تشربُ نوبةَ يومٍ وتشربُون أنتم يومًا بعدهُ؛ والظّاهرُ أنّه لا تقديرَ في الآيةِ فالتّحديدُ للقومِ باليوم إيماء على ابتلائهم؛ على أنّ النّاقة قد لا تحتاجُ إلى الماءِ أيّامًا على طبيعتها، والقوم أهل عيونٍ ولا ريبَ أنّه حظرٌمن مواطنَ معلومةٍ للسّقي فهم مبتلون بوجوبِ الادّخارِبعد أن كانت لهم حرّيّةُ السّقي كلّ يومٍ، وذكر شربها هنا والأكل في مواضع أخرى وأعقبها في كلٍّ بقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ و إيّاكم أن تتعرّضُوا لها بأيّ نوعٍ من أنواعِ الإساءةِ فيُصيبكم عذاب يومٍ شديدٍ بأهوالِه، والعِظمُ للعذابِ وأسندهُ إلى اليومِ"عذاب" مجازًا، ولأنّهم أهلُ فسادٍ لا يُصلحون، فقد أهلكوا النّاقةَ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ فقتلُوا النّاقة؛ ولم يذكروسيلة العقر أو طريقته أو مَن فعلوا ذلك، ولا شكَّ أنَّ العقرَكان من أفرادٍ منهم وليس من الكل، ونسبه للكلِّ لأنّهم كانوا لفعلتهم غيرمنكرين، والعقرُشاع في القتلِ؛ وأصلُه ضربٌ في الأرجلِ تسقُط بهِ النّاقةُ فتنحرلئلاَّ تهرُب قبل أن تموتَ ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ فبدا لهم خطؤهم فصارُوا نادمين؛ وبناءً على آيةِ الأعرافِ، وهي قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧-٧٨].يظهرُ أنّ ندمهم هذا ندم الفطرةِ الحاصل بعد الذّنبِ لكلِّ إنسانٍ؛ فإمّا أن يستثمرهُ وإمّا أن يضيّعهُ، وقوم صالحٍ عليه السلام عتوا بعدهُ وطلبُوا العذاب؛ ولو أخلصُوا توبتهم فإنها لا تُقبل لأنّ الوعيد ثابتٌ بعد الإساءةِ إلى النّاقةِ مباشرةً ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ فلحقهم العذابُ العظيم الذي توعّدهم رسُولهم بهِ وهو الصّيحة؛ وقد قيل فيهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وذكرت مواضع أخرى الصّاعقة والطّاغية والرّجفة تصويرًا لفظاعةِ العذابِ الذي أحاط بهم بكلِّ ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ إنّ في استئصالِ ثمود على منعتِهم لآيةً دلّت على عظمةِ الله، ولم يكن أكثرُهم مؤمنينَ حين أُهلكوا، وإنّ ربّك يا مُحمّد ﷺ عزيزٌفي ملكه رحيمٌ بخلقِه.

## ٦- قصّةُ لُوطٍ عليه السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾.

وبعد قصّةِ موسى و إبراهيم ونوحٍ وهودٍ وصالحٍ يأتي إلى القصّةِ السّادسةِ وهي عن الرّسُول لوط عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تجدّد نفسُ مطلعِ هذهِ القصصِ إيذانًا بوحدةِ هدفِ إرسالِ الرّسلِ، وقيل: كان لوطٌ نزيلاً على الذين أرسل إليهم ولم يكن أخًا بالنّسبِ؛ فتُحملُ هذهِ الآية ونحوها كقوله: ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ [ق:١٣] على الأخوّة الإنسانيّة؛ ولعلّهُم لذلك آثرُوا تهديدهُ بالإخراجِ كما سيأتي ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كيف تشتهُون جنسكم من الذّكورِ؟! والاستفهامُ إنكاريٌّ توبيخيٌّ، والإتيانُ كنايةٌ عن الفعل الجنسيّ في الدّبُر، والذّكران جمعُ ذكرٍ، والعالمون أريدَ به عموم ناسِ زمانِهم، و"مِن" بيانيّةٌ أي: لم يقصرُوا تلك الفاحشة على أفرادِ قبيلتِهم بل فتحُوا بابها حتّى على غيرِهم، وأولى من هذا أن تكونَ "من" فصليّةٌ تفيد الفصل بينَ اثنينِ عن المماثلةِ[٢٠] أي ممتازين عن غيركم من العالمين بهذا؛ وهو المعنى الذي تضمّنهُ: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] وعليه فهم سبقُوا في هذهِ الفاحشةِ كلّ أنواعِ العوالِم التي يُمكنُ أن تقع منها ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ وتترُكون ما هيّأَ الله لكم من نسائكم مناسبًا لفطرتِكم، واللّومُ منصرفٌ إلى التّركِ الجزئيّ فلا شكَّ أنّهم يأتُون النّساءَ للتّناسُلِ، ولا شكَّ أيضًا أنَّ لوطًا عليه السلام حين نهاهم عن أدبارِ الرّجالِ لم يجزلهم إلاَّ موضع الحرثِ من النّساءِ وبطريقِه المشروع؛ وفي استعمالِ "من" التّبعيضيّةِ تلميحٌ إلى ذلك، ويجوزُ تفسير "من" بالبيانيّةِ، والآيةُ من الدّلائلِ على تكرّمِ الله بهذا النّظام الزّوجيّ وليست المرأةُ عنصرًا زائدًا أو مذمومًا كما ترى بعضُ الدّيانات، ثمَّ أضربَ عن موضوعِ الفاحشةِ ليبيّنَ سببَها: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ في حقيقةِ الأمرِ ما حملكم على ذلك إلاّ أنّكم قومٌ

---

[٢٠] ومثالُها في القرآن: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة ٢٢٠] وأيضًا: ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران ١٧٩].

معتدُون على حدُودِ الله، وعبّر بالجملةِ الاسميّةِ تحقيقًا لمدلولِ التعدِّي فيهم، وزاد الأمر تأكيدًا بجعلِ ذلك من خصائصِ قوميّتهم فلم يقل: بل أنتُم عادُون، وهذا تغليظٌ عليهم وشاهدُ عبرةٍ لغيرِهم بأنّهم ما وصلُوا إلى تلكَ الدّرجةِ من المهانةِ الحيوانيّةِ إلاّ باستسهال التّعدّي على الحدُودِ الإلهيّة.

### توعّدُ القومِ لرسُولهم واستنجادُه بربّه وبيانُ نكالِه القويّ بهم

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾.

ولَمّا كانت فظاعة عملِ قومِ لوطٍ ظاهرةً لم يبق لهم إلاّ أسلوب الإسكاتِ؛ فقالُوا لرسُولهم مهدّدين: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ والله لئن لم تتوقّف يا لُوط عن نهيك لنا عمّا نأتيهِ لتكوننّ من المبعدين عن مدينتنا، واللاّمُ في "لئن" ممهّدةٌ لقسمٍ، والأسلوبُ للتّأكيدِ ولا يلزمُ أنّهم قد أخرجوا ناسًا قبله، وأكّدُوا وعيدهُم إمعانًا في إرهابِه؛ لأنّهم أدركوا أنّ لوطا عليه السلام من الدّعاةِ الرّبّانيّينَ الذين لا يملُّون ولا يخافُون، وهدّدُوهُ بالإخراجِ لأنّ شأن أهل الفواحش الاستمتاعُ بفسوقهم في شتّى الأحوالِ وبمختلِف الأساليب ولا يتمُّ لهم ذلك إلاّ بطردِ من يعكّر صفوهم، أجابهم لوطٌ عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ إنّي تاركٌ فِعالكم ومبغضٌ لها؛ ويُمكنُ حملُ هذا على انتهاجه لأسلوب اللّينِ معهم تعليلاً لاجتهادِهِ في دعوتِهم، أو أراد محاججتهم في طلبِ حقّه من العيشِ في جوٍّ من الصّفاء الأخلاقيّ، وعلى كلٍّ فيهِ إيماءٌ بأنّه غيرُ مبالٍ بتهديدِهم، وأكّدَ الكلام لمزيدِ تقريبِ حقيقةِ إحساسه القلبيّ لهم، ولم يقل: قالٍ؛ ليشيرَ إلى أنّ عملهم من شأنِه أن يُبغض، وبين "قال" من الكلام و"القالين" بمعنى الابتعادِ جناسٌ، ثمّ رفع أكفّ الضّراعةِ إلى الله قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يا ربِّ أبعدني وخاصّتي من أهلِ الإيمانِ من القبائحِ التي يأتُونها، ولا يبعُد أنّهم لَمّحُوا لهم بأنّهم مهدّدُون بإيقاعِ الفاحشةِ عليهم فطلب لهم نبيُّهم النّجيةَ العامّةَ، والأنسب أنّهُ إنجاءٌ من العذابِ الحاصِل بعملِهم؛ بتقديرِ مضافٍ، أي: نجني من عذاب عملهم، وأرادُوا به إخراج إقصاءٍ فأكرمه الله بإخراجِ إعزازٍ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ وأمرنا لوطًا عليه السلام بالخروجِ بمن آمن معهُ جميعًا

باستثناءِ امرأتِه الكافرةِ[٢١]، وفي فاء التّعقيبِ ونون العظمةِ"فنجينا" دليلٌ على التّلطّفِ والتّأييدِ، والأهلُ هنا قرابةُ الدّينِ لأنّها العلاقةُ المشتركةُ المسبّبة للتّنجيةِ، وذكر امرأته بالعجوز تلويحًا بأنّها كبرت على الكفرِ ولم ينفعها جوارُ النّبيِّ الطّويل فهلكت دُونه، والغابر المتّصفُ بالغبُورِ وهو البقاء؛ والمعنى: إلاّ عجوزًا كانت في عدادِ الباقين في العذابِ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ وبعدَ تنجيةِ الصّالحين أهلكنا غيرهُم من البقيّةِ الكافرةِ، و"ثمّ" للرّتبةِ وليست عاطفة، أي: والأهم تدميرنا للآخرين، فإنّ ذكر الإهلاكِ أشدُّ وقعًا في مقامِ العبرةِ من ذكرِ الإنجاء، وبيّنَ مبهم التّدمير بقولِه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ و أنزلنا عليهم مطرًا من الحجارةِ؛ كما قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢-٨٣] واستعارلها اسم المطرِ لبيانِ شدّةِ تتابُعِ تلكم الحجارةِ كالمطرِ المعهود؛ ولبيانِ أنّها عذابٌ سماويٌّ ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ وقد ساء حالاً حالُ المعاقبين بعدَ الإنذارِ؛ لأنّهم ضيّعُوا التّفكير بعقُولهم في حقيقةِ مصيرِهم فتألّموا بشدّةٍ حين ثبت عليهم، ولم تُذكَر لقومِ لوطٍ حضارةٌ شأنَ عادٍ وثمودَ وقومِ فرعون لعلّهُ لميوعتِهم في الشّذوذ الجنسيّ قعدُوا عن تركِ بصمةٍ حضاريّةٍ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ إنّ في قصّةِ قومِ لوطٍ وإهلاكهم لعبرةً عظيمةً، ولم يكن أكثرُهم في علمِ الله مؤمنين فلذلك لم يُؤمنوا، وإنّ ربّك يا مُحمّد ﷺ لعزيزٌ لا يحتاجُ إلى أحدٍ رحيمٌ لا يُعذّبُ إلاّ بعد إقامةِ الحجّةِ.

### ٧-قصّةُ شعيبٍ عليه السلام مع أصحابِ الأيكةِ

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤)﴾.

وبعد ستِّ قصصٍ للرّسلِ مع أقوامِهم قصّةِ موسى و إبراهيم ونوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ يأتي إلى القصّة السّابعة لشُعيبٍ عليه السلام مع أصحابِ الأيكةِ آخر قصّةٍ في السّورةِ ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وردَ الفعلُ"كذّب" مذكّرًا هنا على أصلِه بخلافِ ما سبقَ، والأيكةُ علمٌ على بلدِ القومِ

[٢١] ومزيدُ بيانُ الآيةِ في: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨٢].

وقريتِهم؛ وأصلُه لغةً الشّجرُ الملتفُّ؛ و أفردَه لاشتهارِه علمًا بذلك والأصلُ الأيك؛ كما أفرد: "أصحاب الفيل" وهي فِيَلةٌ كثيرة، وفي مسمّاهم ما يدلُّ على أنّهم عمرُوا أرضًا بأشجارِها ومائها وطبيعتِها الحيويّةِ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ شعيبٌ عليه السلام أرسل إلى أهلِ مدينَ، والخلافُ هل أصحابُ الأيكةِ هم أهلُ مدينَ؟ والأظهرُ أنّهم ناسٌ آخرونَ فلذلك لم يُذكر عليه السلام هنا بلفظِ الأخوّةِ كما سبقَت الحكايةُ عن غيرِه مع العلمِ أنّه وردَ في القرآن: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] في أكثر من موضع؛ ولذكر أهلِ مدين بـ﴿أَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ [التّوبة: ٧٠] المشعرة بأنّهم غيرُهم؛ ولاحتمالِ أنّ التّثنية في قصّةِ شعيبٍ عند ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩] لافتةٌ إلى اختلافِ القومينِ؛ ولورودِ روايةٍ في ذلك سنذكُرُها في تفسيرِعذابِ يومِ الظّلّةِ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تجدّد هذا المطلع مع القصصِ الخمس الأخيرةِ باستثناء القصّتينِ الأُولَيَيْنِ قصّةِ موسى و إبراهيم؛ لعلّه لكونهما توجّها بالأخصِّ إلى فرعون وآزر فلذلك اقتضى أن يتحدّث في شأنهما، وفحوى دعوةِ الرّسلِ في الأخيرِ واحدةٌ، وهذهِ الأصول وإن لم تصرّح بالدّعوةِ إلى التّوحيدِ وتركِ الشّركِ كلّ مرّةٍ فإنّه من المعلُومِ أنه قد كان أكثر أولئك الأقوام مشركين.

وشاع عند أصحابِ الأيكةِ تطفيفُ الكيلِ فجاء إنذارُشُعيبٍ عليه السلام لهم:[٢٢] ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ زِنوا للنّاسِ بالإيفاءِ واحذرُوا النّقص في مكاييلِهم، والإيفاء أدقُّ من الإتمام وهو إبلاغُ الشّيءِ إلى قدرٍ لا يُخشى فيهِ النّقص وهو لا يعني الزّيادة أيضًا لأنّه واجبٌ والزّيادةُ غيرُ واجبةٍ، و"المخسرين" جمعُ مُخسرٍ وهو المضيّعُ، ونهيُه لهم عن الكونِ من أهلِ الإخسارِ أبلغُ ممّا لو قال: لا تُخسرُوا ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ واستعملُوا في ميزانِكم الآلاتِ الصّالحة للوزنِ، والقسطاس اسمُ آلة الوزنِ مشتقٌّ من القسطِ؛ ويُستعملُ لدلالةِ "العدل" وهي غيرُظاهرةٍ هنا، وقد استعار معنى الاستقامةِ لصحّةِ الميزانِ وسلامتِه ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصُوا للنّاسِ قيمةَ مبيعاتِهم بأيّ حيلةٍ كانت ومهما كانت قيمتُها، والبخسُ الإجحافُ والنّقصُ؛ وهو في حقيقتِه إخسارٌ في الكيلِ أيضًا، وهذا المقطع يعدُّ قاعدةً تتفرّعُ عنها مسائل كثيرةٌ في فقهِ البيوعِ، واختار التّعبير بلفظِ "النّاس"

[٢٢] والمحتجّون بأنّ أصحاب مدين هم أصحابُ الأيكة متشبّثُون بأنّ دعوة شُعيب عليه السلام للقومين كانت واحدةً؛ ويُجابُون بأنّ القضايا الاقتصاديّة لها امتدادٌ أوسع من غيرِها بحُكم التّبادُلات التّجاريّة الممتدّة فربّما كان التّطفيف أزمةَ عصرِهم كما كان الرّبا اليوم أزمةَ عصرنا.

ليعلمهم بأنّ ذلك مبدأٌ ينبغي أن يتعاملُوا به مع كلِّ أحدٍ، وأطنب في بيانِ أحكامِ الكيلِ الصّحيح تأكيدًا لهم إذ كانُوا مضيّعينَ لها ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تعمرُوا الأرض بالفسادِ، والعثوُّ الاندفاع بدونِ علمٍ ولا هدف وهو يفضي إلى الفسادِ، وهذا النّهيُ يعودُ إلى مسألةِ الكيلِ بأنَّ من آثارِه الإفساد؛ ويجوزُ أن يحمل على أوسعِ محملٍ فيكونُ نهيًا عن البغي والسّرقةِ والغصبِ وغيرِ ذلك من أنواعِ الفسادِ؛ كما كان الشّأن مع أصحابِ مدين حين نهاهُم شُعيبٌ عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦]. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ تأكيدٌ للأمرِ بالتّقوى السّابق أي وخافُوا الله الذي أنشأكم و أنشأ الأجيال السّابقينَ جميعًا، و"الجبلّةُ" الخِلقَةُ من الجَبْلِ وهو الخلق؛ وهو هنا اسمٌ أُطلق على النّاسِ السّابقين كإطلاقِ البشر والعباد، وفي ذكرِ الخلقِ إيماءٌ لهم بأنّ الخالق هو الأولى بالعبادةِ دون غيرِه من الشّركاء، وفي ذكرِ السّابقين تلميحٌ لهم إلى التّفكيرِ في أسبابِ زوالِهم.

### تكذيبُ القومِ لرسُولهم وطلبُهم العذاب وبيانُ نهايتِهم الوخيمة

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)﴾.

ولَمّا استفحل تطفيفُ الكيلِ في القومِ صار التّذكيرُ بخطورتِه وشناعتِه -حسب فكرهم السقيم- نوعا من السّفاهةِ والاختلالِ الفكريّ فلذلك أجابُوا شُعيبًا عليه السلام: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ لا تكُون يا شُعيبُ إلاّ مصابًا بالسّحرِ، والمسحّر مبالغة في نعتِ المسحور، وصيغةُ القصرِ مع التّأكيدِ إيهامٌ منهم بأنّهم قد خبرُوا حالته وليسُوا واهمين لأنّ تهمةً كهذهِ لا تصدّقُ بسهولةٍ، وقد سبق نعتُ موسى بالجنون وتهديدُه بالسّجنِ؛ وتخويفُ نوحٍ بالرّجمِ، واتّهامُ صالح بالسّحر، وتوعّد لوطٍ بالإخراج، ورميُ شُعيبٍ بالسّحرِ مع الكذبِ؛ تنويعًا للرّسُول محمد ﷺ في الأخبارِ ليتمَّ له الحظُّ الأوفر من تسليتِه وقد يكونُ لرسُولٍ واحدٍ أكثر من اتّهامٍ وتهديدٍ ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ولا نراكَ إلاّ كواحدٍ منّا؛ فما الذي فضّلك علينا؟ وورد نحوُ هذا الكلامِ في السّورةِ من ثمودَ لنبيّهم صالح عليه السلام بلا واوٍ"ما أنت إلا بشر" ليصنعَ فرقًا لطيفًا؛ فهنالك بنوا على السّحرِ كونه بشرًا والبشرُ معرّضُون لهذهِ الآفةِ؛

وهنا أفردُوا قضيّةَ بشريّةِ الرّسلِ باعتبارها عنصُرا للردّ، وبهذا يكونون أرسخ في التّكذيبِ بعد أن اجتمعا على وصفِ رسوليهما بالسّحرِ، وتلك كنايةٌ عن كونه ليس رسُولاً صرّحُوا بمدلُولها بقولِهم: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ و إنّا نحسبُك من الكاذبين في أنّك رسُول الله إلينا، و"إن" توكيديّةٌ مخفّفةٌ من الثّقيلة، والظّنُ هنا مفسّرٌباليقينِ كما هووارِدٌ في قوله تعالى: " ظنوا أنهم ملاقوا ربهم" أي تيقنوا، ولامُ "لمن" فارقةٌ بين كونِ "إن" مخفّفةٌ أو نافيةٌ، والأسلوب للتّأكيد وتسهيلِ الفاصلةِ؛ ويجوزُ أنّهم يعتقدُون سبقَ رُسلٍ بالكذبِ فعدُّوا شُعيبًا عليه السلام منهم، وبناءً على اعتقادِهم هذا حملهُم الغرُور بأنفُسهم إلى طلبِ العذابِ ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأنزل علينا قطعًا من العذابِ إن كنت حقًّا من أهلِ الصّدقِ فيما تدعُو إليهِ وتخوّفُ بهِ، والأمرُللاستهزاءِ والتّعجيزِ لأنّه صادرٌعن التّكذيبِ، و"كسفًا" بمعنى قِطعًا، والسّماء جهةُ العلوِّ مطلقًا، وفي توظيفِ "إن" دلالةٌ إضافيّةٌ على اعتقادِهم كذب شُعيب عليه السلام.

وهكذا ظنُّوا أنّ كذبَ شُعيبٍ عليه السلام سيظهرُإذا لم يتحقّق ما طلبُوهُ، لكنّهُ عدلَ عن الحديث معهم في شأنِ العذابِ واختار بحكمتِه أن يُذكّرهم باطّلاعِ الله على أعمالِهم التي هي مناطُ وجوبِ العذابِ عليهم ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ربّي الذي أدعوكم إليهِ عالمٌ بجميعِ أعمالِكم، والمرادُ فهو الذي يعلمُ متى سيأتي أجلُ عذابكم وأيُّ نوعٍ منه سيُعاقبُكم به، ولمّا كان تجرُّؤهم لطلبِ العذابِ فيه استخفافٌ بجانبِ الله آثرَأن يأتي بلفظِ الرّبوبيّةِ مضافًا إلى نفسِه استئناسًا بجانبِه واعتزازًا بهِ دونهم، و"أعلمُ" مصوغٌ للمبالغةِ ولا يعني حقيقة المفاضلة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الفاءُ هذهِ تُسمّى الفصيحة؛ أعربت عن أنّ الكلام الذي اعترض بهِ أصحابُ الأيكةِ على شُعيبٍ عليه السلام هو تكذيبٌ بهِ، وقد كان تعريضًا حذّر الله به مشركي مكّةَ من أثرِتكذيبِ الرّسُول حين قال بعدهُ: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ فأهلكهم الله بعذابِ يومِ الظّلّة؛ والفاءُ للتّعقيبِ أي أهلكهم مباشرةً بعد أن تقرّر إصرارُهم على تكذيبِه، وصِفةُ العذابِ الله أعلمُ بها، وجمهورالمفسّرين يوردُون أثرًا في ذلك فيهِ بعضُ الاختلافِ بين روّاتِه؛ فعن قتادة قال: بعث الله شعيبا النّبي إلى أمّتين؛ إلى قومه أهل مدين؛ وإلى أصحاب الأيكة -فكانت الأيكة من شجرٍملتفٍّ- فلمّا أراد الله أن يعذّبهم بعث الله عليهم حرًّا شديدا، ورفع لهم العذاب كأنّه سحابةٌ، فلمّا دنت منهم خرجوا إليها رجاء بردها، فلما كانوا تحتها مطرت عليهم، وقال: فذلك قوله عزّ وجلّ:

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ[23]﴾ فكان عذابًا من جنسِ ما سألُوه لكن على غيرِ القدرِ الذي توقّعُوه ولذلك عقّب: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إنّ عذاب يومِ الظّلّة كان عذابًا هائلاً مخيفًا، والعظيمُ مجازٌ عن الشّديدِ المخيفِ، وأسند العظمَ إلى اليومِ لأنّهُ محلّ العذاب والأصلُ أنّه للعذاب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ إنّ في إهلاكِ أصحابِ الأيكةِ لدلالةً عظيمةً على قدرةِ الله، وما كان أكثرُقوم شعيبٍ عليه السلام بمؤمنينَ، وإنّ ربّك يا مُحمّد ﷺ كامل العزّةِ رحيمٌ بعبادِه قبل أن يعذّب أحدًا.

## بيانُ مصدرِ القرآن والدّعوةُ إلى الإيمانِ بهِ قبل رُؤيةِ العذاب

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾.

وبتمامِ تلك القصصِ تحقّقت تسليةُ الرّسُول ﷺ مما يجدُه من قومِه من تعنّتٍ وإصرارعلى رفض الإيمانِ وطلبٍ للخوارقِ واتّهامٍ لشخصِه ﷺ وحسُن العودُ إلى ما افتتحت به السّورةُ من تثبيت القرآن في قلبهِ ﷺ وبيانِ مهمّتِه الدّعويّة ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإنّ القرآنَ الكريم منزلٌ من ربّ العالمين بلا شكٍّ، وفي تأكيد الكلامِ ردٌّ لمزاعِم المشركين الكثيرة في القرآن، وجاء بالمصدرِ"تنزيل" مبالغةً في التّعبيرِ عن المنزَلِ، وكأنّه ذات التّنزيل، والأصل أن يقول: وإنه لمُنزَل.. واستعمل اسم "ربّ العالمين"

---

[23] المستدرك على الصّحيحين، ك: تواريخ المتقدّمين من الأنبياء والمرسلين، ب: ذكرُ شعيب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ر: ٤٠٧٥، (٦٢١/٢). ومن الغريبِ أنّ المصدر ذاته ذكر في نفسِ الكتابِ والبابِ أثرين عن ابنِ عبّاسٍ الأوّل شبيهٌ برواية قتادة؛ والثّاني جاء كما يلي: عن عامر عن ابن عباس، قال: "من حدّثك من العلماء ما عذاب يوم الظّلّة فكذّبه" أي عن ماهية العذاب. ر: ٤٠٧٨، (٦٢١/٢).

مناسبةً لتجدّدِ ذكرِه على جميعِ ألسُنِ الرّسلِ السّابقين؛ إيذانًا بأنّ من أوحى إليهم قد أوحى إليك كذلك، ومن مناسبةِ هذا أيضًا بعد القصصِ الإعجازُ بأنّ مُحمّدًا ﷺ لم يعلم قصصهُم إلاّ بالوحي ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ قد وصل إليك القرآنُ بأمانةٍ من الله على يدِ جبريل عليه السلام، وفي هذا ردٌّ على من اتّهموهُ في مصدرِ الوحيِ وتأكيد بأنّ ناقله أمينٌ إلى مبلّغ أمينٍ، وباءُ "به" للمصاحبةِ، ولم يوصف جبريلُ في القرآنِ إلاّ بلقبِ الأمين ليبقى شعارًا ورمزًا له، وسمّي بالرّوحِ لأنّه حاملُ الوحي الذي تحيا به الأرواح؛ كما سمّي الرّسُول ﷺ بالسّراجِ حين جاء بالقرآنِ نورًا لنا، وفي ذكر القلبِ اهتمامٌ بمحلِّ العقلِ والادّكارِ تنبيهًا بأنّ القرآن لم ينزل إلاّ ليغيّر الله به حياةَ البشرِ نحو الأفضل ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ومهمّتُك بالقرآنِ أن تقوم بالإنذارِ بهِ كما قام منذرُون من الرّسل قبلك ولستَ مكلّفًا بهدايةِ أحدٍ، وهذا كما سبق من قولِ الرّسلِ لأقوامِهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ليكون خاتمة عِقدهم، واهتمّ بالنّذارةِ لأنّ عموم السّورةِ جاء في الأقوامِ المكابرين ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ وقد نزل القرآن إليك بلغةٍ فصيحةٍ تفهمُها ويفهمُها قومُك، وقد استعار اللّسان للّغةِ لأنّها تُؤدّى بهِ، والباءُ في"بلسان" متعلّق بـ"نزل" فليس المعنى أن لا ينذر إلاّ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وفي الآيةِ تنويهٌ بجدارةِ اللّغةِ العربيّةِ لأن تكون وعاءً لحملِ خاتِمة الرّسالاتِ السّماويّةِ من بينِ عشراتِ اللّغاتِ؛ لا لشيءٍ إلاّ لكونها فازت بأساليبها وطرقِها الكثيرةِ الجميلةِ السّهلة.

وزيادةً في إثباتِ قيمةِ القرآنِ وصحّتِه يقُول: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ وإنّ القرآن مذكورٌ ومشارٌ إليهِ في كتُبِ السّابقين، وعُلم بدلالةِ الاقتضاءِ أنّ المراد اسمه لا سُطوره وحُروفه، والزّبر جمع زَبُورٍ وهو الكتاب كرُسلٍ ورسُول، و"الأوّلين" مستعارٌ لمعنى السّابقين من الرُّسلِ؛ والظّاهرُ أنّ التّعريف فيه ليس للاستغراق والقرآن ذكر في بعضِ الكُتبِ كالتّوراةِ والإنجيل[٢٤] ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ سؤالُ تعجيبٍ للمخاطبِ وهو الرّسُول ﷺ تضمّنَ إنكارًا على الغائب وهم المشركون، و"أن" مصدريّةٌ، وقولُه: "علماءُ" أحبارهم وأهل العلم منهم، ممن قرأ الكتب السابقة وعلم ما فيها، وعلمهم بالقرآن معرفتُهم به وبأصولِه العامّةِ، بمعنى: ألم يكن ذكرُ القرآنِ في بعضِ كتُب السّابقين من الرّسل

[٢٤] وقيل المعنى كقولِه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشّورى: ١٣]، أي لم يجئ إلاّ بما جاء به الرّسل الأوّلون، وفي كلا الحالين فيه دلالةٌ على صحّته.

وعلمُ علماء بني إسرائيل به والذين هم من ورثة رسالاتِهم علامةً على أنّه من الله، وفي "يعلمه علماء" جناسُ اشتقاقٍ.

وزيادةً في بيانِ أنّ الكفّار إنّما ديدنُهم الإصرار على الكفرِ بسطَ الفرضيّة التّالية: قد كان من المعلومِ أنّ أهل اللّغةِ الواحدةِ يشدُّهم الاهتمام بالأجنبيّ الذي يتقنُ كلامهم فهل إذا جاء القرآنُ على لسانِه اهتمُّوا به؟ يقُول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ ولو أنّنا أنزلنا القرآن بلغة العرب على من لا يُجيدُ العربيّة إطلاقًا، و"الأعجمين" جمعُ أعجم أو أعجميٍّ وعلى الثّاني فأصلُه "أعجميّين" وحذفت ياء النّسبِ تخفيفًا؛ وهو الذي لا يُفصح بالعربيّةِ بغضّ النّظرِ عن جنسِه، والظّاهرُ أنّه أراد بالبعضِ أحدَ الأعجمين لأنّه قال: ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فيَمْثُل قارئًا القرآن عليهم مع كونه غير ناطق بالعربية، ولكن يخرِق الله له الأمر، لو قرأه عليهم فيُعجزهم بالإفصاحِ والبيانِ بعد العجمةِ إضافةً إلى بلاغةِ القرآنِ وعجيبِ نظمِه لم يصدّقُوهُ لشدّةِ عنادِهم وفي نفيِ الكونِ مبالغةٌ في تحقيقِ نفيِ إيمانِهم، والمراد تسليتُه ﷺ وبيانُ أنّ الخلل كلّه فيهم وليس في بيانه.

وممّا سبق يتبيّنُ حجمُ كُفرِهم وعنادِهم الذي قابلُوا الله بهِ؛ ويبيّنُ الله بأنّه قد أقام الحجّة عليهم: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الهاءُ للقرآن حفاظًا على تناسُقِ الضّمائر، والسّلكُ الإدخال، والمعنى: بقدرِ تحقّقِ كفرِهم قد ظهر إدخالُنا للقرآنِ في قلوبِهم لأنّهم إنّما اشتدّ عنادُهم بزيادةِ سماعِهم للقرآنِ على حدِّ قوله فيه: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، أو الهاءُ للكفرِ المفهومِ من نفيِ الإيمان بمعنى: ومثل حجمِ عنادِهم قد أدخلنا الكفر في قلوبِهم، واختار نعتهم بالمجرمين زيادةً في ذمّهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يُصدّقُون بالقرآن أنّه كتاب هدايةٍ ربّانيّ حتّى يُباغتُوا بالعذاب من غيرِ أن يتوقّعُوه فيؤمنوا اضطرارًا، ورُؤيةِ العذابِ مشتركٌة مع إتيانِ العذابِ، لأنه يأتي ويرونه في نفس الوقت، وعلى هذا ففاء التّعقيبِ في "فيأتيهم" مهملةٌ، والآية تضمّنت تهديدًا لهم بعذابٍ سيحلُّ بهم؛ وهو دنيويٌّ ويجوزُ تفسيرُه بالأخرويّ ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ وحين يرون العذاب ويعلمون أنّه واقعٌ بهم يطلبُون الإمهال متحسّرين على العذاب متمنّين فرصًا أخرى، والاستفهامُ للالتماسِ والتّمنّي، وفي بيانِ هذا تذكرةٌ لنا بوجوبِ الشدِّ على الإيمان قبل أن تغلق دوننا الفرص.

ومن ديدنِ المنذَرين بالعذابِ أن يستبعدُوا حصوله فيستعجلُوه تعجيزًا واستهزاءً به فجاء الرّدُ عليهم ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ الاستفهامُ إنكارٌ عليهم وتعجيبٌ من حالِهم، وفاءُ التّعقيبِ بيانٌ لمعاجلتِهم بالإنكارِ عقب استهزائهم، وتقديمُ "عذابنا" لرعايةِ الفاصلةِ والاهتمام به في مقامِ الإنذارِ، و والفعل المضارع"يستعجلون" لاستحضارِ حالِهم الغريبةِ أي كيف يودُّون نزول العذابِ عليهم كما قالوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] أم غرّهم إمهالُ الله لهم وسُكوته عنهم؟ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ هل تأمّلت إن جعلناهم عبر سنين طويلة في وفرةِ العيشِ وطيبِه، والاستفهامُ حثٌّ على النّظرِ والادّكارِ، والرّؤيةُ علميّةٌ، والخطابُ للرّسُول ﷺ وشمل كلَّ ذي بصيرةٍ ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ثمّ بعدها لحق بهم العذاب الذي كانوا يوعدُونه ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ "ما" الأولى استفهاميّةٌ، لكن جاءت هنا للنّفي بمعنى: لم ينفعهم ما كانُوا يستلذُّون بهِ من متاعِ الدّنيا ليرفع عنهم عذابًا أو يُؤخّرهُ أو يخفّف من وطأته؛ بل العذابُ سيأتيهم على أيّةِ حالٍ؛ وما فائدةُ ملذّاتٍ مهما طالت وبعدها عذابٌ؟ وتقدير المعنى: لو أنّنا متعناهم سنين ثمّ عذّبناهُم هل تأمّلت بأنّه لم ينتفعُوا بالتّمتيع.

ونتساءلُ عن قانُون استحقاقِ العذابِ الإلهيّ في هذا المقامِ فيأتي الجوابُ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ ولم نهلك قريةً في حالٍ من الأحوالِ إلاّ في حالِ وصول منذرين من عذابِ الله إليها، والمهلَكُ أهل القريةِ وأضاف الإهلاك للقرية على سبيل المجاز المرسل، والمنذرون الرّسل اختار لهم هذهِ التّسمية مناسبةً لمقامِ ذكرِ الإهلاك، وهنا وقفٌ تامٌّ وهو الوحيدُ في السّورةِ ﴿ذِكْرَى﴾ خبرُ مبتدإ محذوف والتّقديرُ: هذِه ذكرى كقوله: ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أي ليكون في إهلاكهم ذكرى لغيرِهم، أو ليذكّرُوهم بالله ويُخوّفُوهم من عذابِه ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ولم نكن أبدًا ظالمين أحدًا بتعذيبِه لأنّنا بعثنا الرّسل و أقمنا الحجج عليهم، والتّعبيرُ بنفيِ الكون أفاد معنى: ليس من شأننا الظّلم.

وحين أثبت بأنّ مصدر القرآن الوحيد هو ربّ العالمين على يدِ الرّوح الأمين نفى ما ظنّه المشركون بأنّ القرآنَ ممّا كانت تسترقُه الشّياطينُ من الملإ العلويّ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ لم ينزل القرآنُ على يدِ الشّياطين بل على يدِ جبريل الأمين كما سبق بيانُه ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ وليس في سنّةِ الله في الإنزالِ

أن يُجريه على يدِ الشّياطين لأنّ القرآن كتابُ نورٍ وهدايةٍ يتنافى مع نفسيّتِهم الغوائيّة ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا تقوى الشّياطينُ على استراقِ شيءٍ من القرآنِ المنزلِ، والحاصلُ: لم ينزلُوا بالقرآنِ ولم يجز أن ينزلُوا به ولو أرادُوا لعجزُوا، وحقّق ما سبق وأكّدهُ بقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ إنّ الشّياطين محجُوبون عن تلقّي كلامِ السّماءِ؛ وهذا منذُ بعثتِه ﷺ مثلما جاء عنهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجنّ: ٩]، ويجوزُ عودُ ضميرِ "إنّهم" للمشركين مناسبةً لما بعدهُ فيكونُ تعليلاً لتركهم القرآن وابتعادِهم عنه.

## توصيةُ الرّسُول ﷺ بأهمِّ أسسِ الدّعوةِ وحثُّه على الثّباتِ

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)﴾.

وبناءً على البيانِ السّابقِ الذي استوفى الحظّ من إعلاءِ شأنِ كلامِ الله قال محذّرًا: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ فلا تعبد أيّها الرّسُول ﷺ إلهًا مع الله تعالى، والدّعاءُ مستعملٌ مجازًا في العبادةِ لأنّه رُوحها، وهذا النّهيُ على طريقِ الإلهابِ والإيقاظِ والرّسُول بعيدٌ عن الشّرك، أو هو خطابٌ له ﷺ لأنّه صاحبُ وحيٍ أريد به غيرُه ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ فتكون بذلك ممّن حقَّ عليهم عذابُ الله الدّنيويّ ثمّ الأخرويّ، وهنا تعريضٌ للمشركين بالعذابِ القريبِ، والآية تنبيهٌ إلى إصلاحِ النّفسِ، ثمّ جاءَ إلى دعوةِ الغيرِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ولتكن من المنذرين أيضًا لأهلِك الأقرب فالأقرب؛ أو التّفضيل مسلوبٌ بمعنى: عشيرتك القريبين منك؛ تعليلاً لاستحقاقِهم أسبقيّة الإنذار، وهو تخصيصٌ من عمومِ الإنذارِ السّابقِ اهتمامًا بالأقربين لئلاّ تُظنّ فيهم خصاصةٌ ولأنّهم أحقُّ بنصرِه وقبُوله، عن عائشة أمّ المؤمنين قالت: لمّا نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ على الصّفا، فقال: (يا فَاطمةَ بنت محمّد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطّلب، لا أملك لكم مِن الله شيئًا، سلوني مِن مالي ما شئتم).[٢٥] ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكن ليّن الجانبِ متواضعًا

[٢٥] رواهُ مسلم، ك: الإيمان، ب: قول الله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، ر: ٢٠٥، (١/١٩٢).

مع المؤمنين، وفي خفضِ الجناحِ استعارةٌ لهيئةِ الطّائرِ مع صغارِه صوّر بها حال الرّحمةِ والتّذلّل، و"مِن" للبيانِ فيكونُ ذكرُهم زيادةً في البيانِ بالإيمان تنويهًا بعلّةِ استحقاقِهم للّين؛ ويجوزُ كونُها تبعيضيّة، وبدأَ بذكرِ القرابةِ لأنّ اهتمام الدّاعي بها يُعرب عن مدى جرأته للحقِّ وتجرّده للنّصيحةِ فيكون أدعى لكسبِ الأتباعِ، وذكر باقي المؤمنين بوجوبِ اللّينِ معهم لأنّ طباعهم الكثيرة الجديدة تقتضي ذلك ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وإذا خالفوا أمرك فصرّح لهم بأنّك متبرّئٌ من عملِهم؛ والتّبرّؤُ من العمل يقتضي ترك صاحبِه حتّى يعلن تنصّله منه، والواو في "عصوك" ضمّيرُ يجوزُ عودُه إلى الأقربين أو المؤمنين أو الكفّارِ عامّةً، وفي هذا ترسيخٌ لمبدأ البراءةِ من الأشخاصِ بسببِ فعالِهم كما سبق عن لوطٍ عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ [الشّعراء: ١٦٨]، وفي الأمرِ بالتّصريحِ بالبراءةِ نوعٌ من الإنذارِ الذي قام عليهِ السّياق فالمتبرّأ منهُ يرى نفسه أقرب إلى الهلاكِ فيرتجي الحماية لها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ واطلب الاستعانة ممّن بيدِه العزّةُ كلّها ومنهُ فيوض الرّحمةِ جميعُها، وهذان اسمان لله سبقَا بعد كلّ قصّةٍ وقد ناسبَا مقام التّثبيتِ والتّسليةِ، وحين عطف هذهِ الجملة على جملةِ جوابِ "إن" المقرونةِ بالفاءِ استُخلص الحثّ على المبادرةِ إلى التّوكّل أي فتبرّأ وتوكّل؛ هذا لأنّ التّبرُّؤ سيُكسِبُه العداوة ضدّهُ فوقاهُ لئلاّ يتأثّر بها، ثمّ يومئ له بأنّه مجاب الدّعوةِ ومؤيّدٌ بذكرِ محامِدِه ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ وهو المطّلع عليك حين تقفُ متضرّعًا باللّيلِ بين يديه كما يبصرُك وأنت ساجدٌ له، وأسند الرّؤية إلى الرسول"يراك" تشريفًا ولو شاء لقال: يرى قيامك وسجودك، والتّقلّب استعارةٌ للتّحوّل والانتقالِ، وذكرُ السّجودِ قرينةٌ على أنّه أراد من القيامِ قيام الصّلاةِ؛ وشاع إطلاقُه على صلاةِ اللّيلِ فلا ينبغي صرفُه عن هذا إلاّ بقرينةٍ، وقيل: يراكَ إذا ذكرته خاليًا أو في الجماعةِ، ورُوي عن مقاتل أنّ الآية من الإشاراتِ القرآنيّةِ إلى صلاةِ الجماعةِ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إنّ الله تعالى يسمعُ الأقوال ويعلم النّوايا، وأكّد الكلام لأنّ المقام جاء للتّثبيتِ، والصّيغتانِ للمبالغةِ؛ واختار الصّفتين لأنّ السّمع أنسبُ بقل: إنّي بريءٌ؛ والعلم أوفق بعزائم التّوكّل.

## التّحذيرُ من شياطينِ الإغواء وشياطينِ البيان

ومن الملاحظِ في الحديثِ أنّه لم يقتصر ﷺ في العهدِ المكّيِّ على الإنذارِ من الشّركِ بل أنذر حتّى من المعاصي فقد أنذر فاطمة وصفيّة وهما مؤمنتان، ومن الملاحظِ أيضًا خفضُ الجناحِ معهما لأجلِ الإيمان بخطابهما بلفظِ البنوّةِ والعمومةِ.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾.

وحين أبطل نزول الشّياطين على الرّسُول ﷺ بيّن على مَن تتنزّلُ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ الاستفهامُ للحثِّ على السّماعِ وجلبِ الانتباهِ، والمعنى: اسمعُوا أُخبركم ﴿عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ على أيّ نوعٍ من النّاسِ تنزّلُ الشّياطين؟ و"من" أيضًا للاستفهام؛ وأصلُ النّظمِ: من تنزّلُ الشّياطينُ عليهِ؟ ويسألُ ويُجيبُ على حدِّ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النّبأ: ١-٢]. ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ تنزّلُ الشّياطينُ على كلِّ راسخٍ في الإفكِ غارقٍ في الإثمِ من السّحرةِ والكهنةِ ونحوِهم من أهلِ الضّلال أي ليس على صادقٍ أمينٍ طاهر سليمٍ، وأصلُ الفعلينِ "تتنزّلُ" حذفت فيه تاءٌ تخفيفًا، و"كلّ" للتّكثيرِ وكأنّها لم تدع أفّاكًا أثيمًا لم تنزل عليهِ، والصّيغتانِ "فعّالٌ وفعيلٌ" للمبالغة؛ وبين الصّفتينِ تناسبٌ فإنَّ أولئك يبدؤون بالكذبِ ويقترفُون أشنع الآثام ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يقدّمُ الشّياطينُ لأوليائهم من البشرِ -أي قبل أن يمنعُوا- ما استرقُوهُ من الوحيِ وأكثرُهم متجرّئون على الكذبِ فيه زيادةً أونُقصانًا، والأصلُ يلقُون المسموع وعبّربالسّمعِ مبالغةً، وقيل: الآيةُ في الأفّاكين أي يصغُون إلى الشّياطين مع أنّ أكثرهم كاذبُون؛ وعلى هذا إلقاءُ السّمعِ مبالغةٌ في وصفِ الإنصاتِ لأنّ ما يُلقونه آذانهم لا أسماعهم، ولا يحسن أن يراد بالأكثريّةِ إلاّ الشّياطين لأنّ الأفّاكين قد علم أنّهم كاذبُون، والأكثريّةُ مستعارةٌ لمعنى الكلِّ.

وممّا وسم الرّسُول ﷺ به أيضًا مع السّحرِوالكذبِ والجنُون أنّه شاعرٌ؛ فنفى اتّصاله بهذا الفنِّ بطريقٍ بارعٍ مبيّنًا طبيعة الشّعرِوعالم الشّعراء الذي كانت تجلُّه العرب ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ والشّعراء الفاسدُون يتّبعُهم أهلُ الضّلال، وقدّم لفظ "الشّعراء" اهتمامًا، والغاوون الضّالّون أو المضلّلون والمعنى فهم سببٌ لجلبِ دهماءِ النّاس أوهم قصدٌ يهتمُّ بهِ أهلُ الرّياسةِ لتحقيقِ أغراضِهم؛ احتمالان صالحانِ، وفيه ردٌّ على الذين اتّهموهُ ﷺ بالشّعربأن ينظرُوا إلى أتباعِه فلا يجدُونهم إلاّ أهل خيرٍودعاةَ صلاحٍ لا أهل غو ايةٍ وأنّ لهم دستُورًا لا ينطبقُ عليهِ شيءٌ من وصفِ الشّعرِ.

ثمّ يكشفُ عن أبرزِ مظاهرِ أولئك الشّعراء ليتبيّن وجهُ ذمّهم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ألم تعلم أيّها العاقلُ أنّهم يخُوضون في كلّ شيءٍ وعلى كلّ نمطٍ يحلُو لهم؟ والاستفهامُ تقريريٌّ أي لقد رأيتَ أنّهم كذلك، والرّؤيةُ علميّةٌ، و"كلّ" مستعملةٌ للكثرة، و"يهيمون" من الهيام وهو الحيرة والتّردّد، وفي هذا التّعبير استعارةٌ تمثيليّةٌ رشيقةٌ لحالِ الإبلِ حين تنزلُ الوديان لترعى ولا تدري أيّ مسلكٍ تأخذُ أو تذر﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وفي خوضِهم تظهرُ نتيجةٌ حتميّةٌ بأنّهم يفتخرُون ويتبجّحُون بأقوالٍ لا يفعلُونها، والكلام مسوقٌ في مقامِ الذّم كأن يفتخر الشّاعرُ بأنّه مقدامٌ ثمّ لا يكونُ كذلك؛ وهذا على مستواهُ الفرديّ أو القَبَلِيّ؛ ولا يراد به الإعذار كأن يصرّح بفعلِ القبائح وهو لا يأتيها، وهذهِ مذمّةٌ كبيرةٌ في عرفِ العربِ لأنّ شيمتهم تأبى الكذب وجرأتَهم تأبى التّخاذل والعجز.

وما سبقَ كلامٌ عن عالمِ الشّعرِ في حقبةِ الشّركِ وقد اقتضى المقام استثناءً صوّر فيه أهمّيّة هذا الفنّ إذا وظّفه صاحبه المؤمنُ بما يتوافقُ مع أسسِ الدّين الجديد ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلاّ الشعراء الذين قالُوا صالحًا وعملُوا بمقتضاهُ أي تعلّموا من الدّينِ الجديد تهذيبَ عقائدِهم وتصويبَ فعالِهم، فهم يراعُون عدمَ مصادمةِ مبادِئهم بقولٍ يتناقضُ مع إيمانِهم أو فعلٍ يتناقضُ مع أقوالِهم ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ولهجُوا بذكرِ الله كثيرًا، وفي هذا تلميحٌ إلى أنّهم يراقبُون الله في كلّ قولٍ، وفي الجمعِ بين الإيمان والعمل وكثرةِ الذّكرِ تنبيهٌ إلى أنّ الشّعر لم يكن يُشغلهم عن الأصل ولم يكن همّ ليلِهم ونهارِهم، ثمّ لَمّح إلى أنّ الشّعر ينبغي أن يُقال لأغراضٍ منها الدّفاع عن النّفسِ: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ واجتهدُوا في طلب النّصرِ من بعدِ أن ظلمهم غيرُهم بوسيلةِ الشّعرِ أو غيرِها ظُلمَ حربٍ أو أيَّ نوعٍ من الظّلمِ، و"ما" مصدريّةٌ أي من بعدِ ظُلمِهم، وبين الانتصارِ والظّلمِ طباقٌ.

ومناسبةً لما سبقَ في السّورةِ من ذكرِ الرّسلِ وما لاقوهُ من أقوامِهم يختمُ السّورةَ بوعيدٍ مرعبٍ شديدٍ يكونُ كالخلاصةِ في الإنذارِ لكلّ ما مرَّ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ وسيتبيّنُ للظّالمين سوء عاقبتِهم، ومنهم الشّعراء الذين توعّدُوا دعوة الرّسُول وهجوهُ وسبُّوا أصحابه، والسّينُ للتّوعّدِ مع الاستقبالِ القريب، والانقلاب استعارةٌ للعودِ والرّجوع، وبين اللّفظينِ محسّنُ الجناسِ، وترك العقاب مبهمًا مبالغةً في التّهويلِ، والآيةُ ممّا دأب العُلماء على سوقها في مجالِ الإنذارِ.

تمّ بحمدِ الله تعالى تفسير سورةِ الشّعراء وتليها سُورة النّمل

# سورة النَّمْل

سورة النَّمْل مكِّيَّة، عدد آيها ثلاث وتسعون آية، سمِّيت بسورة النَّمل وهو أشهر أسمائها لورود قصَّة وادي النَّمْل فيها، وتسمَّى أيضا بسورة سليمان وسورة الهدهد، وهي السُّورة الثَّامنة والأربعون في عداد نزول السُّور، نزلت بعد الشعراء وقبل القصص متتالية وفق ترتيبها في المصحف.

هذه السُّورة تتَّفق مع أغراض السُّور المكِّيَّة في بيان أصول العقيدة، فقد أبانت السُّورة معجزة النبيِّ محمد ﷺ وهي القرآن الكريم المنزَّل من عند الله هُدى ورحمة للمؤمنين، ثمَّ تعرَّضت إلى سرد وقائع من قصص الأنبياء المثيرة: موسى وداود وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام، أبرزت من خلالها مو اقف عِدَّة للموازنة بين موقف المشركين في مكة ومو اقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم، للعبرة والتدبُّر في سنن الله وسنن الدعوات. ثم تلا ذلك بيان الأدلَّة والبراهين الصَّادقة البيِّنة على وجود الله تعالى.

وقد أنكرت السُّورة على المشركين تكذيبهم البعث والحشر والنُّشور، وألزمت بني إسر ائيل بالاحتكام إلى القرآن في خلافاتهم وخصوماتهم، كما أبانت أشراط السَّاعة وأهوال يوم القيامة. واختتمت السورة بتصنيف النَّاس فوجين؛ سعداء أبرار، وأشقياء فجار، كما أبانت جزاء كلِّ واحد بما يستحق، ودعت المشركين إلى عبادة الله وحده و اتِّباع منهج القرآن في الحياة لأنَّه النُّور الذي يُهْتدى به.

فالسُّورة في مجملها تدعو إلى المبادرة إلى الإيمان بالله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، والتَّصديق بالبعث، و اتِّخاذ القرآن نبراسا يُهْتدى به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

## رسالة القرآن الكريم ومقاصدها

﴿طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ (١) هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤)أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)﴾.

﴿طس﴾ "طَا، سِينْ" من الحروف المقَطَّعة التي ابتُدِئَ بها في كثير من سور القرآن الكريم، تنبيهًا أريد به بيان إعجاز القرآن الكريم وتحدي العرب الإتيان بمثل هذا القرآن المكوَّن من حروف لغتهم التي يتخاطبون بها وينظمون بها شعرا ويخطُبُون، وهي السورة الوحيدة التي بدأت بـ"طس" ﴿تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ﴾ هذه الآيات المنزَّلة عليك يامحمَّد هي من القرآن المعجز﴿وَكِتابٍ مُبِينٍ﴾ وهي آيات كتاب واضح بيّنٍ، مظهر للحق من الباطل ﴿هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا القرآن هادٍ للمؤمنين الطائعين إلى صراطٍ مستقيمٍ ومخرجهم من الضَّلالة، ومُبشِّر لهم برحمة الله تعالى وجنَّاتِ النَّعيم. ثم إنه تعالى ذكر مظاهر الإيمان فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ إنَّ المؤمنين الحقيقيين هم الذين يؤدُّون الصَّلاة على تمامها بأكمل وجه بخشوعها وآدابها وأركانها مستحضرين فيها عظمة ربّهم ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ ويدفعون زكاة أموالهم المفروضة بأنفس راضية ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ويصدِّقون بالآخرة ويجزمون بوجودها بلا شكٍّ ولا ريبٍ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لمَّا ذكر تعالى الموقنين بالبعث أعقب ذلك بنقيضهم وهم المكِّذبون به المستبعدون لوقوعه بعد الموت ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ﴾ حسَّنَّا لهم أعمالهم القبيحة فهي محبوبة إلى نفوسهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ فهم بذلك في ضلال حيارى على غير بصيرة متردِّدُون لا يميِّزون بين الحسن والقبيح."فيعمهون" بمعنى: يتردَّدُون ويتحيَّرون ﴿أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ﴾ فهؤلاء لهم أشدُّ العذاب في الحياة الدُّنيا من قتلٍ وأسرٍ وتشريدٍ ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ وخسارتهم في الآخرة أشدُّ؛ فمصيرهم إلى النَّار المؤبَّدة، والمراد أنهم أكثر خسرانا من غيرهم ممن هو أقل ذنبا منهم كفساق الموحدين، فالزيادة فى الكم ، أو أكثر شدة فالزيادة فى الكيف ﴿وَ إِنَّكَ

لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ واعلم يا محمَّد أنَّك تتلقى هذا القرآن وتؤتاه من عند خالقٍ عظيمٍ، حكيمٍ في أمره ونهيه وتدبير خلقه، عليمٍ بأحوالهم وما فيه صلاحهم وسعادتهم.

## سير موسى عليه السلام بأهله وخبره بالوادي المقدَّسِ

﴿إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٨) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)﴾.

بعدما أخبر الله تعالى نبيَّه عليه السلام بأنَّ ما يتلقَّاه من القرآن من عند خالقٍ عظيمٍ، قرَّر سبحانه هذه الحقيقة بأمره أن يتلوَ بعض ما أورده فيه من القصص عظة وذكرى، فابتدأ بقصَّة موسى عليه السلام؛ كيف اصطفاه الله وكلَّمه وناجاه وبعثه بالمعجزات المبهرة والأدلَّة القاهرة إلى فرعون وقومه، فقال ﴿إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ﴾ اذكر يا محمد حين قال موسى عليه السلام لأهله -وهو كناية عن زوجته- وهذا خلال مسيرته من مَدينَ إلى مصرَ حيث ضلَّ الطَّريق ﴿إِنِّي آنَسْتُ ناراً﴾ قال موسى إني أُبصر نارًا من بعيدٍ تتأجَّجُ وتضطرم ﴿سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ﴾ سآتيكم منها بخبرٍ عن طَّريق السير الذي ضللنا عنه ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ﴾ أو سأحضر لكم منها شعلةً من النَّار، فالشِّهاب: الجمر المشتعل، والقبس: قطعة من النَّار مقبوسة أي؛ مأخوذة من أصلها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاء أن تستدفئوا من وهج تلك النَّار في هذه اللَّيلة الباردة.تصطلون: من اصطلى يصطلي إذا استدفأ من البرد ﴿فَلَمَّا جاءَها﴾ لمَّا بلغ موسى مكان النَّار ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها﴾ ناداه الله من جانب الطُّور وأخبره بأنْ بارك الله من في النَّار وهو موسى والبقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ﴾[القصص: ٣٠]، وبورك من حولها، أي حول مكان تلك النَّار، قيل المراد بهم الملائكة الحاضرون وقيل إنَّ المراد بها أرض الشَّام على عمومها الموسومة بالبركات لكونها مهبط الأنبياء ومبعث الرسالات،

ومعنى "بورك" أي تقدَّس، وهو تبريك الاصطفاء الإلهي بالكرامة ﴿وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ تقدَّس وتنزَّه ربُّ العزة والخلائق عما لا يليق به،فهو يفعل ما يشاء ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ﴿يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يا موسى إنَّ الذي يخاطبك ويناجيك هو الله القويُّ القادر المستحقُّ للعبادة وحده دون غيره، عزيز لا يُقهر ولا يُغلب، حكيم في تدبير شؤون خلقه ﴿وَأَلْقِ عَصاكَ﴾ نودي أنِ ارم عصاك على الأرض لترى معجزتك بنفسك ﴿فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ﴾ فلمَّا رأى موسى عصاه وقد انقلبت حيَّةً عظيمةً سريعة الحركة كأنّها الجانّ، والجانُّ على رأي كثيرٍ من المفسّرين: نوعٌ من الحَيَّات خفيفُ الحركةِ، والتشبيه به يكمن في سرعة الاضطراب؛ لأنَّ الحَيَّات سريعة التحرُّك، وأمّا أن يراد به التّشبيه بالمخلوقاتِ الجنّيّة فهو محتملٌ والأوّل أرشق ﴿وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ هرب خائفا ولم يرجع ولم يلتفت لما خالجه من الفزع؛ فقد لحقه ما يلحق البشر عادة إذا ما رأوا أمرًا هائلاً مفزعًا وهو انقلاب العصا حَيَّة تسعى. ولم يعقب:لم يرجع على عقبه أي خلفه. ثمَّ إنَّ الخالق سبحانه هدَّأ نفسه وأزال رعبه مناديا إيَّاه ﴿يا مُوسى لا تَخَفْ﴾ يا موسى أقبل إليَّ ولا تخف فإنَّك آمِنٌ بحضرتي ووجودي ﴿إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ إنَّك أنت رسولي و إنَّه لا يخاف لديَّ الرُّسل من حَيَّةٍ ولا غيرها حين يوحى إليهم ﴿إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ الاستثناء منقطع ،والإ بمعنى لكن، أي: لكن الذين تجاوزوا الحدَّ بذنبٍ أو معصيةٍ ثمَّ تابوا من بعد ذلك وأصلحوا،وقيل: الاستثناء متصل على تقدير محذوف؛ أي: إلا من ظلم فإنه يخاف فإذا تاب وأصلح ذهب خوفه، وقد قيل إنَّ المراد من الاستثناء التعريض بموسى حينما وكز القِبطي ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإنّي غفور له رحيم به، ففي ذلك بشارة للنَّاس من عدم اليأس من رحمة الله ومغفرته، كما قال تعالى: ﴿وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾ [طه: ٨٢] ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ وأدخل يا موسى يدك في فتحة قميصك المفضية إلى الصَّدر ثم أخرجها. والجيب: طوق القميص عند الرقبة ﴿تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فإنَّها ستخرج بيضاء ناصعة كالثَّلج تتلألأ كالبرق من غير برص ولا نحوه من الآفات ﴿فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ "فالعصا واليد" ضمن تسع معجزات أخرى لتأييدك في رسالتك، دالَّة على صدقك فتذهب بها إلى فرعون وقومه،كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وهي: الفلق والطُّوفان، والجراد، والقمَّل، والضَّفادع، والدَّم والطَّمسة-وهى جعل نقودهم حجارة-، والجدب في بواديهم،

والنُّقصان في مزارعهم. ومَنْ عَدَّ العصا واليد من التِّسع عدَّ الجدب والنُّقصان واحدة ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾ إنَّ هؤلاء القوم كانوا خارجين عن أمر الله وطاعته كافرين به ﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً﴾ فلمَّا جاءتهم تلكم المعجزات الباهرة ورأوها واضحة بيّنة ﴿قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قالوا إنَّ هذا سحر بيّن وظاهر ﴿وَجَحَدُوا بِها﴾ وكذَّبوا بالمعجزات الواضحات البيّنات الدَّالة على صدق موسى ونبوته و أنكروا أن تكون من عند الله ﴿وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ مع أنَّ أنفسهم مؤمنة موقنة بأنَّها من عند الله، فقد كانوا منكرين للحق متكبرين غير معترفين به ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فانظر–أيُّها الرَّسول ويا كلّ سامعٍ متدبّرٍ-كيف كانت نهاية ومصير هؤلاء القوم المفسدين في الأرض إذ أغرقهم الله في الدنيا وسيحرقهم في الآخرة، وفي ذلك عبرة لمن يعتبر وتحذير لمكذبي الرُّسل الذين أرسلهم الله هداية للبشرية.

### نِعم الله تعالى و أفضاله على سيدنا داود وسليمان عليهما السلام

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾.

ينتقل الله ﷻ إلى القصة الثَّانية والتي تحمل في طيَّاتها الكثير من العبر والعلم والأسوة؛ "قِصَّة سيدنا داود و ابنه سليمان عليهما السَّلام" فيقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً﴾ ولقد أعطينا كُلًّا من داود و ابنه سليمان عليهما السَّلام علمًا واسعًا عظيمًا من علوم الأحكام والشَّرائع والقضاء بين النَّاس، وعلَّمْنا داود صنعة دروع الحرب، كما علَّمْنا سليمان كلام الطير والدوابّ، فجُمِع لهما من علوم الدُّنيا والدِّين، فشكرا الله تعالى:﴿وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الحمد لله الذي خَصَّنا بهذا الفضل العظيم وفَضَّلنا على كثير من عباده المؤمنين؛ بما آتانا من النُّبُوَّة وأكرمنا بخير العلوم الجامعة لخيْرَي الدُّنيا والآخرة، وفي ذلك إشارة إلى فضل العلم وإلى رفع مرتبة

العلم والعلماء، إذ يقول الحق سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، كما أنَّ في ذلك حثًّا على شُكْر النِّعمة والتَّواضع لذلك ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾ وخَلَف سليمان أباه داود في النبوَّة والعلم والمُلك، وليس المراد بالإرث وراثة المال؛ لأنَّه قد خُصَّ بهذا الإرث عن بقيَّة أولاد داود الكُثُر، والأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله فيما رواه البخاري عن عائشة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (لا نُورث، ما تركنا صدقة)؛[٢٦] ففي هذه الآية استعمل الإرث في معناه المجازيّ وهو تشبيه الأحوال الجليلة بالمال ﴿وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ وقال سليمان عليه السلام متحدِّثًا بنعمة الله عليه: يا أيُّها النَّاس إنَّ ربِّي أكرمنا فعلَّمني لغة الطير وأصوات جميع الحيوانات؛ إذ أستطيع التمييز بينها وفهم مقاصدها من نوع تصويتها، والأصل أن يقول: علمتُ، ولكن قال: علمنا؛ لأنه أعظم قومه وما له يعود نفعه إليهم بالانقياد إليه، كما ذكر ذلك القطب في تفسيره ﴿وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والله أعطانا خيرًا كثيرًا من كلِّ شيء من خيرات الدُّنيا ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ إنَّ الذي أعطانا الله والذي خَصَّنا به من النِّعم الجليلة لهو الفضل الإلهي الواضح البيِّن الذي يميِّزنا عمن سوانا، وقد قال هذا على سبيل الشُّكْر والمحمدة لا علوًّا وتكبُّرًا، وإنَّ هذا الخطاب الذي تَوَجَّه به سيدنا سليمان للنَّاس ليتضمَّنُ شكر الله تعالى على ما منحه من العلم والملك، كما يشير في طيَّاته إلى حَمْلِ النَّاس على تقديره وإعلامهم بواجب الطَّاعة له إذ اصطفاه الله وأطلعه على لغات الحيوان فما ظنُّك بمعرفة أحوال النَّاس من رعيَّته وجنده، وإن التفاف النَّاس حول ملكهم وصفاء النِّيَّات نحوه لَمِمَّا يتحقق به التعاون على الخير، وبمقدار ذلك تنزل السكينة الرَّبَّانيَّة ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ وجُمِع لسليمان في مسيرة كبيرة جيشه وعسكره من الجنِّ والإنس والطير، وسليمان يتقدمهم في أُبَّهةٍ وعظمةٍ كبيرة، مع تمام الخشوع لله رب العالمين، و اقتصر على الجن والطير ولم يذكر الخيل وهي من الجيش لغرابة كونهما من الجنود. حشر: جمع ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ فجنوده يكُفُّون ويمنعون من أن يتقدم أحد بين يديه، وكانت جنوده يؤمرون فيأتمرون ويُنْهَون فينتهون، فعلى كثرتهم كانوا منتظمين يردُّ كلُّ جنس أولهم على آخرهم، فقد سَخَّر الله له الرَّعيَّة كلَّها. يوزعون: من الوَزَع وهو الكفُّ والمنع عمَّا لا يراد ﴿حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ﴾ حتى إذا وصل سليمان

---

[٢٦] رواه البخاري، ك: الفرائض، ب: قول النبي ﷺ: (لا نورث ما تركنا صدقة)، ر: ٦٧٢٧، (١٤٩/٨).

ومن معه من الجيش والجند إلى وادٍ كثير النمل ﴿قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ﴾ قالت نملة لبقية النمل أن ادخلوا بيوتكم ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ﴾ حتى لا يكسرنَّكم سليمان وجيوشه بأقدامهم ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ دون أن يشعروا بذلك؛ فقد حذَّرت النملَ من أن يؤذيها سليمان وجنده من دون عمدٍ فهي تعلم أنه نبيٌّ رحيمٌ. فانتبه سليمان لكلامها وفهم مرامها عندها ﴿فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها﴾ تبسم سليمان سرورًا بأدبها وشرع في الضَّحك لما سمع من ثناء النَّملة عليه وعلى جنوده، وهذا تنويه بر أفته وعدله الشامل لكلِّ مخلوق لا فساد منه وأنَّ وليَّ الأمر إذا عدل سرى عدله في كل الأشياء، أو سُرَّبما خصَّه الله به من فهم منطق الحيوان واستشعر نعمة الله عليه، فتوجَّه إليه داعيًا ﴿وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ﴾ ربِّ ألهمني ووفِّقني لشكر نعمائك و أفضالك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديَّ. وسؤاله الله الدَّوام على شكر النعمة لما في الشُّكر من ثواب وازدياد للنِّعم. وإنَّما إدراجه ذكر والديه كون النِّعمة على الولد نعمة على والديه؛ فالولد التَّقيُّ الصَّالح ينفعهما بدعائه ودعاء المؤمنين لهما كُلَّما دعوا له، وفي ذلك دليل على برِّ الوالدين والدعاء لهما بعد الممات ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ﴾ ووفِّقني يارب للعمل الصَّالح الذي تحبُّه وترضاه؛ أداء لواجب شكر النعمة ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ وأدخلني الجنَّة برحمة منك واجعلني من زمرة عبادك الصَّالحين من الأنبياء المخلصين والأولياء الصَّالحين.

### الهدهد وقصَّته مع سيِّدنا سليمان عليه السلام

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ماذا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ بحث سليمان عن الطَّير وفتَّش في جماعة الطُّيور ليتأكد من حضورها جميعا، فالتَّفقُّد:طلب ما فقد أو ما غاب عن الإنسان وتفقُّدُ الجند من سمات الملك والأمراء. ومن واجبات وُلاة الأمور تفقد أحوال الرَّعيَّة والعمَّال ونحوهم بأنفسهم ﴿فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ قال سليمان: لم لا أرى الهدهد في جماعة الطير؟ ومن بابِ الأدبِ ردَّ اللّوم إلى نفسِه أوّلاً "ماليَ"؛ ثمّ تلطّفَ في اتّهامه فاستعملَ الاستفهام وعدّهُ ضمنَ مجموعةٍ اتّصفت بالغيابِ ﴿أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ﴾ أم غاب عن جماعة الطّيرِ دون أن أعلم بغيبته، ولَمّا تأكد من غيابه قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ توعَّده بالعذاب الشَّديد، من قتلٍ أو تعذيبٍ بنتفِ ريشه أو إبعاده عن خدمته أو عقابٍ شديدٍ بالسِّجن أو غيره، إلا أن يأتيه بحجَّةٍ واضحةٍ وبرهانٍ واضحٍ يُبيّن عذره وسبب غيابه؛ لأنَّ تغيُّبه دون إذنٍ عصيانٌ يقتضي العقاب، وقد أباح الله له ذلك تأديبًا ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ غاب الهدهد زمنًا يسيرًا ثمَّ جاء سليمانَ قائلاً له: ﴿فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ إنّي قد اطَّلعت اطلاعاً تاما على أمر لم تطَّلع عليه ولم تعلم به أنت ولا جنودك،والإحاطة بالشيء علما أن يُعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وقد أتيتك من مدينة سبإ -وهي باليمن- بخبر مهمّ ومُؤكَّد وأمرٍ هامٍ خطيرٍ ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ إنّي رأيت امرأة ملكةً عليهم يدينون لها بالطَّاعة والولاء. والخبر مهمٌّ إذ لم يكن معهودا في بني إسرائيل أن تكون المرأة ملكًا ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وأعطيت من متاع الدُّنيا الشيء الكثير من سعة المال والملك والجيش المسلَّح؛ فقد كانت تملك كل ما تحتاجه المملكة في زمانها من تجهيزاتٍ وعتادٍ ﴿وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ولهذه الملكة سريرٌ كبيرٌ فخمٌ حسنُ الصَّنعة. فالعرش: هو سرير الملك. وفي هذا تنبيه لسليمان عليه السلام بأنَّ في مخلوقاته تعالى ملوكا وممالك تداني ملكه أو تفوقه في بعض أحوالها؛ ليكون ذلك مثلا له لئلا يغتر بانتهاء الأمر إلى ما بلغه هو، ثم إنَّ الهدهدَ يحدِّثه ويخبره عمَّا هو أعظم وأخطر ﴿وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقد وجدت هذه الملكة وقومها يسجدون للشَّمس ويعبدونها من دون الله الواحد الأحد ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ﴾ وقد حسَّن لهم إبليس ما يفعلون من عبادة للشَّمس دون الله تعالى وغير ذلك من المعاصي وقبيحِ أعمالهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ فصرفهم بذلك عن الطَّريق المستقيم وعن الحقِّ والصَّواب ﴿فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ فهم بسبب غواية الشَّيطان لا يهتدون إلى عبادة الله وحده ﴿أَلاَّ

يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال الهدهد متعجبا: أيسجدون للشَّمس ويعرِضون عن السُّجود لله الخالقِ العظيمِ المبدع الذي يعلم خفايا السَّماء والأرض والقادر على إظهارها بعد العدم؛ من إشراق الكواكبِ وإنزالِ الأمطار وإنبات النَّبات وإنشاء الأشياء وإبداعها.والخبْءُ: المختفي والمستور من كلّ شيء كالمطر والنَّبات وغيره من المغيبات ﴿وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾ ويعلم ﷻ ما بطن وما ظهرَ من أمور عباده، فهو يعلم خفايا قلوبهم وما تعلن ألسنتهم ﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ إنَّه هو الله تعالى الواحد الأحد المتفرّد بالعظمة والجلال المستحقُّ للعبادة والسُّجود وهو رب العرش العظيم؛ إذ ليس في المخلوقات أعظم منه، وكلُّ عرش مهما عظم فهو أدنى منه فالواجب إفراده بالعبادة. وهنا انتهى كلام الهدهد، وكونه سبحانه رب العرش دليل على استغنائه عنه، وهو من الإدلة على بطلان اعتقاد استقرار الله حقيقة على العرش، وكيف يحتاج الخالق للخلق؟!ووجود الله أزلي لا أول له، وأما العرش فمخلوق حادث، وخلقه لم يحدث تغيراً في ذات الله ولا صفاته ﴿قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ قال سليمان للهدهد سنتحقق من قولك وننظر إن كنت صادقا أم كاذبا فيما أخبرتنا به، وفيه دليل على وجوب التثبت في الأخبار المنقولة، خاصة ممن كان ذا سلطة وجاه حتى لا يتعجل في اتخاذ قرار على أمر غير متحقَق منه ﴿اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ اذهب بهذا الكتاب وأوصله إلى ملكة سبأ وجندها وألقه إليهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ثم تنحَّ عنهم مستترًا إلى مكانٍ قريبٍ﴿فَانْظُرْ ماذا يَرْجِعُونَ﴾ فانظر رَدَّة فعلهم وكيف يكون جوابهم.

## قصَّة الملكة وجوابها لسيدنا سليمان عليه السلام

﴿قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ماذا تَأْمُرِينَ (٣٣)قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ

أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ (٣٧)﴾.

﴿قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ﴾ قالت الملكة للملإ، وهم أشراف قومها وخاصَّتهم وأركان دولتها ومملكتها، إنَّه قد أُلقيَ إليها كتابٌ جليلٌ كريمٌ لحُسن مضمونه وجودة عبارته أو لكرم مُرسِله ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ﴾ إنَّ هذا الكتاب مُرسَلٌ من سليمان، وإنَّ مضمونه في غاية الوجازة والفصاحة والبراعة ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ "بسم الله الرحمن الرحيم" استفتاحٌ شريفٌ بارعٌ بالبسملة الدَّالَّةِ على إعلان الرُّبوبيَّة لله وإثبات وحدانيَّته وقدرته ورحمته والدَّعوة إلى الانقياد لأمره؛ فلا تتكبَّروا عليَّ ولا ترتفَّعوا عن الحقِّ وجيئوني بالإسلام الجامع لأصول الفضائل أو ائتوني طائعين منقادين ﴿قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ قالت للملإ من قومها أشيروا عليَّ في أمر هذا الكتاب. وإنَّ هذا من الحكمة والتشاوروعدم انفراد الحاكم بالقرار؛ فقد أرادت استعطافهم عن حسن سياسةٍ ورشادٍ إلى اتِّخاذ الرَّأي الأصوب ﴿ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ما كنتُ لأبرمَ أمرًا هامًّا وأقطع فيه إلا بحضوركم ومشاورتكم، وهذا ممَّا يُستحبُّ شرعا؛ المشاورة في الأمور المهمَّة الجليلة ﴿قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال الملأ من قومها نحن أصحاب قوَّةٍ وعتادٍ وأصحاب شِدَّة ونجدةٍ وثباتٍ في الحرب، وهذا استعدادٌ منهم للقتال والحرب والدِّفاع عن المملكة ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ماذا تَأْمُرِينَ﴾ ثم فوَّضوا الأمر إليها قائلين: أمرنا إليك فأمري بما تَرين ونحن طوع أمرك نطيعُ ونمتثل ﴿قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها﴾ أجابت الملكة لمَّا رأت مَيْلَهم إلى القتال وهي تجنحُ إلى الصُّلح قائلةً: إنَّ عادة الملوك أنَّهم إذا ما دخلوا بلدًا واستولوا عليه عنوةً وقهرًا خرَّبوه وأتلفوا الدِّيار والأموال ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً﴾ إضافة إلى ذلك فإنَّهم يهينون أشراف القوم ويذلُّونهم بالقتل والأسرِ والتشريد والاستعباد؛ ليُحقِّقوا لأنفسهم الغلبةَ والرَّهبة ﴿وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وهذا ما يفعله الملوك في عادتهم المستمرَّة والثَّابتة عند دخولهم أيَّ بلدٍ بالقوَّة، والأقرب أنَّ هذا من كلام الملكة؛ وقيل إنَّه تعقيب من الله ﷻ على كلامها تصديقا له؛ لأجل ذلك عَدَلت إلى المهادنة والمصالحة فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ وإني سأعتمد هذه التجربة وأختبر أمره؛ فأرسل إليه هديةً عظيمةً تليقُ بمقامه لأنظر،فإن كان مَلِكًا دُنيويًّا قَبِلَها، وإن كان نبيًّا

مرسلاً ردَّها ﴿فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ ثمَّ إنّي سأنتظر ما يكون جوابه؛ لعلَّه يقبل الهديَّة ويكفُّ عنَّا شرَّهُ. نقل ابن كثير عن قتادة أنَّه قال: «ما كان أعقلها في إسلامها وشركها!! علمتْ أنَّ الهديَّة تقع موقعاً من النَّاس»،[٢٧] ونقل أيضا عن ابن عباس وغيره: «قالت لقومها إنْ قبِلَ الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبيٌ صادقٌ فاتَّبعوه»،[٢٨] ﴿فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ﴾ فلمَّا جاء رسول الملكة بالهديَّة العظيمة إلى سليمان قال: أتُصانعونني بالمال والهدايا لأترككم على شرككم وضلالتكم؟ ﴿فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ﴾ إنَّ الله أعطاني خيرًا كثيرًا من النُّبوَّة والمال والملك أعظم من هديَّتكم، فلا حاجة لي بها ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُون﴾ إنَّما أنتم الذين تفرحون بالهدايا لأنَّكم أهل مفاخرةٍ ومكاثرةٍ في الدُّنيا، أمَّا أنا فلست طالبا للدُّنيا إنَّما أدعوكم إلى الإسلام وعبادة الله وحده ولا أقبل منكم غير ذلك ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها﴾ ارجع أيُّها المبعوث إليهم بهديَّتهم، فإنَّا سنأتيهم بجنودٍ لا طاقة لهم على محاربتهم، ولا قدرة لهم على قتالهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ﴾ وسنخرجهم من قريتهم أذلَّة مهانين.صاغرون: من الصَّغاروهو الذُلُّ.

## زيارة الملكة مملكة سليمان عليه السلام وإسلامها لله ربِّ العالمين

﴿قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٤)﴾.

---

[٢٧] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج: ٦، ص: ١٩٠.

[٢٨] المرجع السابق.

رجعت الرُّسُل بهديَّة الملكة وأخبروها بجواب سليمان، فما كان منها إلا أن عملت بمضمون رأيها السَّابق مع قومها إذ لا طاقة لها بمواجهة سليمان وجنده، عندها استجابت لطلبه و أقبلت إليه تنوي متابعته في دينه الإسلام، فلمَّا اقترب وفدها من بلاد الشَّام ﴿قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ قال سليمان لأشراف جنده وخاصَّته: أيُّكم يأتيني بسرير مُلكها قبل أن تأتي إليَّ وقومها طائعين منقادين، أو المراد مؤمنين بالله ورسله وشرعه. قيل إنَّه أراد أن يريها بعض ما خصَّه الله به من العلم والقوَّة الدَّالَّة على عظيم قدرته تعالى دليلاً على صِدقه في دعوى النبوَّة و إقامةً للحجَّة عليها بقدرة الله ووحيه، وقيل إنَّه أراد باستدعائه سرير الملك اختبار عقلها بأن ينكِّر لها عرشها، وقيل ليرى قدر ملكها؛ لأنَّ العرش على قدر الملك ﴿قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ﴾ قال مارد قويٌّ من مَردة الجنِّ لسليمان: أنا أستطيع أن أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلِسك مجلس القضاء أو قبل أن تستوي قائما من مجلسك، وقيل إنَّه كان من الغداة إلى نصف النهار يمكث للحكم بين النَّاسِ.العفريت: القويُّ الخبيث المارد من الشَّياطين ومن الإنس ﴿وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ و إنِّي قادر على حمله وإحضاره وأمين على ما فيه من الدُّرِّ والجواهر وغيره، لا آخذ منه شيئا ولا أبدِّله، ولكن سليمان أراد أن يحضر إليه العرش في أسرع من ذلك ﴿قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ﴾ فقال الذي عنده علم من الكتاب المنزَّلِ، وهذا قد اختلف في تحديدِه والأظهرُ أنّه أحدُ أعوانِ سُليمان وقيل: هو جبريلُ وقيل: سليمان نفسُه، وذلك أنّه كان مُدركا وعالماً بسرٍّ مأخوذ من الكتاب الإلهيّ يُجابُ به الدُّعاء فسأل الله فأحضرهُ؛ وهذا على تفسيرِ القدامى، ويرى المعاصرُون أنّه هو الذي اطلع على القوانين الفيزيائية والرياضية فاستطاع بها اختصار المسافات فأتى بالعرشِ، ورأي الأقدمين أصح؛إذا الأمر أسرع من أن يكون خاضا لقانون إلا أمر من إذا أراد شيئا قال له كن فيكون ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أنا أحضر إليكَ العرش قبل أن تغمض عينكَ وتفتحها، والمراد بذلك السُّرعة الشَّديدة في الإحضار ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ فلمَّا نظر سليمان ووجد العرش حاضرًا ساكنًا بين يديه، حمد الله على ما أجرى بين يديه وقال إنَّ هذا من عظيم فَضْلِ الله عليَّ وإحسانه ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ ليختبرني سبحانه هل أشكر فضله وإحسانه أو أكفر نعمته وأجحد فضله و إنعامه ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ ومن يشكر نعمة الله

فإن منفعة شُكره تعود لنفسه بإدامة الموجود وجلب غيره؛ لأنه يستزيد من فضل الله، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أمَّا من كفر وجحد فضل الله ونعمته عليه، فإنَّ الله مُستغنٍ عنه وعن شكره، كريمٌ بالتفضُّل والإنعام عليه ثانيًا؛ فمن شأنه تعالى الكرم على العاصي والمطيع ﴿قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها﴾ أمر سليمان بعد أن حضر العرش إليه بأن يغيّروا بعض أوصافه وهيئته وشكله بزيادة أو نقصان أو غير ذلك، ونكروا: أبهموه عنها بتغير هيئته وشكله حتى تنكره اذا رأته ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾ لننظر هل ستهتدي إلى معرفته إذا رأته أم أنَّها ستكون تائهةً متحيّرة ولن تعرفه، أراد بذلك اختبار عقلها وذكائها ﴿فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ﴾ فلمَّا جاءت الملكة إلى سليمان قيل لها: أمِثْلُ هذا العرش الذي أمامك عرشُك؟ ﴿قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أجابت وقالت: إنَّه يشبه عرشي ويقاربُه، فقد أجابتهم بعدم الجزم مع أنها جازمة أنَّه هو؛ لاحتمال أن يكون لسليمان مثله وذلك من كمال عقلها وذكائها إذ لم تقل إنَّه هو ولا ليس هو، فقد شبَّهت عليهم كما شبَّهوا عليها ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قيل هذا من كلام سليمان وقومه شكرا للنِّعمة التي خصَّهم الله تعالى بها، فنحن أسبق علمًا وإسلامًا؛ أي: قد أوتينا العلم قبل هذه المرأة بقدرة الله تعالى كما كنَّا من قبلها مسلمين طائعين منقادين لله تعالى، وقيل هو من كلام الملكة، ومعناه لقد أوتينا قبل هذه المعجزة -حضور عرشها- بقدرة الله تعالى وصحّة نبوَّة سليمان، وكنَّا خاضعين منقادين لله عزَّ وجلَّ فلا حاجة لاختبارك لي ﴿وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقد منعها عن الإيمان عبادتها للشمس التي كانت تسجد لها دون الله تعالى ﴿إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ﴾ لأنَّها نشأت بين قوم كافرين ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ قيل للملكة ادخلي القصر العظيم. فالصّرْح هو القصر، وكلُّ بناء مرتفع يسمَّى صرحًا ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها﴾ فلمَّا رأته وأرادت الدُّخول ظنَّته لجَّة ماء –ماء كثير مجتمع- وكشفت عن ساقيها بتشمير ثوبها، وقيل بخلع نعليها لئلاَّ تبتلَّ بما حسبته ماء ﴿قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ﴾ قال سليمان لها إنه قصر مُمَلَّسٌ من الزجاج الصَّافي. فالممرَّد: الملَّس. قَوارِيرَ: جمع قارورة وهي الزجاجة. عندها بهرت بما رأت من آيات دالّة على صدق سليمان فقد كان مؤمنا بالله مع قوَّة العلم والتطوُّر؛ فخضعت له وقالت: ﴿قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ قالت الملكة: ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسي بعبادة غيرك، فقد أدركت أنَّ دينها ودين قومها

باطل ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ وإنّي أتَّبع سليمان في دينه مسلمة مؤمنة بالله ربِّ العالمين. فالملكة مع علوِّ شأنها وعظمة سلطانها وذكاء عقلها لم يصدَّها ذلك عن النظر في صدق الدَّاعي إلى التَّوحيد والاعتراف بفساد الشِّرك وبطلانه.

# نموذج من أسئلة المسابقات السابقة

حتى يتعرف المشارك على طبيعة وطريقة أسئلة المسابقة، فيما يلي نموذج لبعض أسئلة المسابقات السابقة:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ تضمنت الآيتان علاجا لوسوسة الشيطان هو:

| | |
|---|---|
| أ | ذكر الله والاعتصام به وطلب الحماية منه لأنه العليم به وبنزغه. |
| ب | عدم التمادي مع الوسواس حتى لا يتمكن في القلب. |
| ج | جميع ما ذكر صحيح. |

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

ما الفرق بين الاستماع والإنصات؟

| | |
|---|---|
| أ | الاستماع محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت، والإنصات رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره. |
| ب | الاستماع رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره ، والإنصات محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت |
| ج | لا يوجد فرق بينهما، وقد جاء طلب الإنصات تأكيدا لطلب الاستماع |

٣- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (الْأَنْفَالُ) هي:

| | |
|---|---|
| أ | الغنائم من الحرب. |
| ب | ما يتقرب به المسلم إلى الله من النو افل. |
| ج | قو افل التجارة. |

٤- قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ كره فريق من المؤمنين الخروج للقتال ببدر بسبب:

| | |
|---|---|
| أ | عدم استعدادهم للقتال، حيث كانت نيتهم الأولى هي التعرض لعير قريش وليس القتال. |
| ب | للخوف من العدو حيث كان عدد المسلمين قليلا. |
| ج | أ و ب صحيحتان . |

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الطَّائِفَتَيْنِ) هما:

| | |
|---|---|
| أ | المسلمين والمشركين. |
| ب | العير المقبلة من الشام وما تحمله من أموال وبضائع، وقتال النفير المقبل من مكة والنصرة عليهم. |
| ج | المسلمين واليهود. |

٦- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معنى الاستدراج الوارد في كلمة (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ):

| | |
|---|---|
| أ | سيرسل الله لهم الآيات والأوبئة والمصائب مما يجعلهم يقنطون من رحمة الله تعالى، فيأخذهم بغتة من حيث لا يشعرون. |
| ب | سيبسط الله لهم من الرخاء والنعماء ما يجعلهم ينسونه ويستبعدون عقابه، فيأتيهم بأسه من حيث لم يسبق لهم به علم. |
| ج | سيرسل الله تعالى إليهم السراء والضراء مما يجعلهم ينسونه ويقنطون من رحمته، فيأخذهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون. |

٧- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ورد في تفسير (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا):

| | |
|---|---|
| أ | كأنك تتعمد إخفاءها على قومك رغم علمك بها من خلال الوحي. |
| ب | كأنك صاحب معرفة بها وبحث في شأنها ومهتم بها. |
| ج | كأنك على اطلاع بإمارات قيام الساعة ولكن تخفيها على قومك للاستعداد للامتحان الدنيوي. |

٨- قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ مشيئة الله هنا تعني:

| | |
|---|---|
| أ | إيمان الإنسان أوكفره بيد الله وحده، ولا اختيار للإنسان فيه مطلقا. |
| ب | يمكن للإنسان أن يتحول إلى غير دينه بنفسه واختياره المطلق دون أن تكون للمشيئة الإلهية أي تدخل في هذا الجانب. |
| ج | التأدب مع الله سبحانه وتعالى الذي جعل كل شيء بيديه، حتى إيمانهم الذي تمكنوا فيه، فلو شاء الله خذلانهم بالكفر ما منعه مانع. |

٩- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ "لخاسرون" كانوا يقصدون بها:

| | |
|---|---|
| أ | التحذير من اتباع شعيب عليه السلام بوقوع الهلاك والخسارة والمتمثلة في أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم كما يظنون؛ لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث. |
| ب | التحذير من خسارة ما يجنونه من الأموال نتيجة تطفيف المكيال والميزان وغش الناس. |
| ج | أ و ب صحيحتان. |

١٠- قال تعالى: ﴿ وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في هذه الآية الكريمة يحذر الله المؤمنين من بلاء يصيب:

| | |
|---|---|
| أ | المسيء بظلمه ومخالفته لأمر الله تعالى. |
| ب | غير المسيء لسكوته عن المخالفين وعدم إنكاره المسيء مع القدرة على ذلك. |
| ج | "أ" و "ب". |

١١- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى ..... وكان ذلك في .....

| | |
|---|---|
| أ | (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى اليهود، وكان ذلك في المدينة المنورة. |
| ب | (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في مكة المكرمة. |
| ج | (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في المدينة المنورة. |

١٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ المكر هو ....., وتفسير مكر الله سبحانه وتعالى هو .....

| | |
|---|---|
| أ | المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو إلهام نبيه صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه بمخادعة الكفار ورد مكرهم عليهم. |
| ب | المكر هو محاولة إيقاع الضرر بالقوة، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو رد مكر الكافرين عليهم بإرسال ملائكته لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم. |
| ج | المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو حفظ الله لرسوله و إفشال مكر الكافرين حيث أنجاه الله منهم وحفظه وردد مكرهم عليهم. |